قرآنا

بيان وإعجاز

الجزء الأول

جمع وترتيب السيّد

محمد بن علوي العيدروس

الملقّب سعد



قرآننا

بيان وإعجاز

جمع وترتيب

السيد/ محمد (سعد) بن علوي العيدروس

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الرحمن الرحيم العليم الحكيم ، القائل في كتابه الكريم : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) [النساء : ٨٢] والصلاة والسلام على عبده ورسوله وصفيه المنزل عليه قرآننا عربيا غير ذي عوج ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحابته الغر الميامين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

قد اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن يكون سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم أنبيائه ، وتكون رسالة خاتم الرسالات إلى الناس كافة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

والنبي صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل ، إذ كل الأنبياء اقترنت دعواهم للنبوة بالمعجزة ، فما من نبي إلا وأظهر الله علي يديه من خوارق العادات الملائمة لطبيعة المجتمع الذي بعث فيه كدليل قاطع على صحة دعواهم ، فكانت هذه المعجزات سببا في إيمان من آمن بهم ، ولا يغيب عن أذهاننا أن هذه المعجزات كانت آنية لم يبق منها إلا الذكر في القرآن الكريم وكبت التاريخ .

لكن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم اتسمت معجزته الكبرى (القرآن الكريم) بالبقاء إلى يوم القيامة ، فهو محفوظ مصون عن التغيير والتبديل ، لأن رسالته صلى الله عليه وسلم عامة باقية خالدة ، فهناك ترابط وثيق بين أمرين متلازمين لا ينفكان عن بعضهما : عموم رسالته صلى الله عليه وسلم إلى جميع الثقلين إلى يوم الدين ، وبقاء القرآن مصونا محفوظا من التلاعب والتغيير : ليبقى أكبر معجزة على صدق نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومظاهر الإعجاز في القرآن الكريم متعددة ، صنف فيها العلماء كل على حسب ما وصل إليه ، وفتح عليه .

فالقرآن معجز من حيث أساليبه البلاغية ونظمه الذي لا يشبه نظم الرسائل والخطب .

والقرآن معجز من حيث المعاني التشريعية التي جاء بها من الأوامر أو النواهي الإصلاحية التي فيها سعادة العالم ، فهو معجز في تشريعه وأحكامه .

والقرآن معجز في قصصه الذي قصه ، المشتمل على أنباء الأمم الماضية .

والقرآن معجز من حيث العلوم والمعارف التي جاء بها التي لا تحدد ولا تستقصى ولا تنقضي عجائبها وغيرها وغيرها .

ولا يزال يظهر للعقلاء والعلماء وجوه سر إعجازه ولذلك قيل : إن من إعجاز القرآن العجز عن إحصاء وجوه إعجازه ، بل إن من إعجاز القرآن العجز عن استقصاء الوجه الواحد من وجوه إعجازه .

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا مجموعة من المقالات العلمية التي تبحث وجوه الإعجاز ، والقضايا المختلفة التي عالجها القرآن ، والمعلومات القرآنية ـــ فهو عقد نفيس يضم جواهر مختلفة ألوانها ، يجمعها سر المعجزة المحمدية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية .

والحمد لله رب العالمين ،،

(١)

الإعجاز القرآني في القمر

منار الإسلام العدد (٨)

للقمر مكانة سامية في قلوب الناس منذ أحقاب سحيقة مضت من الزمن، وذلك لاعتباره أقربِ الأجرام السماوية إلى الأرض، ولما ينطوي على سر الروعة والبهاء عندما يرسل أشعته الفضية إلى الأرض، فتنفلق ظلمات الليل بضيائه المنير الذي يضفي على الأرض رونقا متألقا من النور الهادئ الأخّاذ، ولذلكم فإن طائفة كبيرة من البشر ـــ قديما ـــ اعتبرت القمر إلهاً، يلجأ إليه عند نزول الكوارث والأزمات، وبذلك صبؤوا فكانوا من الوثنيين الذين أتى القرآن ليحررهم من معتقداهم التي ارتبطت بالأجرام وبالشمس والقمر، يقول تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [١] . ولقد اضمحلت تلك الوثنيات.. وذهب ما ترنم به الشعراء .

أقول: لقد ذابت عندما وطئ رواد الفضاء القمر بأقدامهم وسفنهم الفضائية، وصوّروه لنا وإذا هو صخور جرداء وفوهات مخيفة وتضاريس داكنة سوداء، وبهذا يكون قد خفَّ سحر القمر وجماله البرّاق، وسطعت

---

١) سورة فصلت الآية (٣٧) .

معالم التقنية البشرية الحديثة، لتسطّر التحوّل التاريخي في دنيا البشر، وتمكّنها من النزول على سطح القمر .

"ففي ٢٠ تموز سنة ١٩٦٩م، نزل الرائدان الأمريكيان (نيل آرمسترونغ) و (أدوين ألدين) على سطح القمر، فكان أول إنسانين يطآن جرما خارجا عن الأرض، وتلت هذه الرحلة التاريخية الناجحة ست رحلات من طراز (أبولو) أنزلت روادا على سطح القمر.

وقد بقي الرائدان على سطح القمر مدة ٢٢ ساعة و ٤٠ دقيقة، وضعا خلالها أجهزة علمية متنوعة كمقياس الزلازل لقياس الهزات القمرية، وقياس البراكين وغيرها، إضافة إلى بعض الرموز التذكارية، كعلم أمريكا وغيره، وقد بدأت الرحلة في ١٦ تموز ١٩٦٩م، واستمرت ١٩٥ ساعة و ٢٠ دقيقة، وأنهت أعمالها في ٢٤ تموز.

وإليك بعض الخواص والمعلومات عن القمر والتي أفادنا بها العلماء:

"كتلة القمر = ١:٨١,٣ من كتلة الأرض.

حجم القمر = ١:٥٠ من حجم الأرض.

نصف قطره = ٢٧:١٠٠ من نصف قطر الأرض .

المجالس المغناطيسي = ١:١٠ مليون من مجال الأرض.

طول اليوم = ٢٧،٣ يوم أرضي.

الظروف الفيزيائية للقمر:

"ليس للقمر غلاف هوائي بسبب قربه من الأرض، مع ضعف جاذبيته والارتفاع الكبير في درجات الحرارة عليه أثناء النهار، ولا يزيد قدر الغازات التي قد تتراكم مناسبة من باطنه في أي وقت عن جزء من المليون من كتلة جو الأرض، كذلك لا يوجد على القمر ماء سائل ولا ثلوج، ولم يجد رواد الفضاء الذين هبطوا على القمر أثر لمياه جوفية تحت سطحه، ولكن الصخور التي جلبوها لتحليها على الأرض ثبت احتوائها على الماء في تركيبها الكيميائي، وكان رواد الفضاء على سفن (أبولو) الأمريكية قد جلبوا (٢٠٠٠) عينه كتلتها (٣٨٢) كجم [١] .

القمر منير:

قال تعالى: (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) [٢] . وقال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا) [٣] . وقال تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً) [٤] .

---

١) علم الفلك العام: د. ميرفت السيد عوض ود. مصطفى كمال محمود، ص١٢٩ .

٢) سورة نوح الآية (١٦) .

٣) سورة يونس الآية (٥) .

٤) سورة الإسراء الآية (١٢) .

في هذه الآيات دلالات علمية مدهشة، أخبر عنها القرآن الكريم، فكان سياقا في ميدان إثبات الحقائق العلمية التي عرفها الناس حديثا.

فالآية الثالثة تخبرنا أن الله سبحانه وتعالى قد محا آية الليل ــ التي هي القمر ــ بعد أن كانت ملتهبة، فمحاها وطمسها، وترك آية النهار مبصرة مضيئة والتي هي الشمس.

يقول الفخر الرازي: "في قوله تعالى: (فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة). أن يكون المراد جعلنا نيّري الليل والنهار آيتين، يريد الشمس والقمر، (فمحونا آية الليل) وهي القمر، والمراد من محو القمر الكلف الذي يظهر في وجهه، ومعنى المحو في اللغة: إذهاب الأثر، تقول: محوته امحوه وانمحى وامتحى إذا ذهب أثره، (وجعلنا آية النهار مبصرة)، ومعنى كونها مبصرة، أي مضيئة، وذلك لأن الإضاءة إطلاقا لاسم السبب على المسبب [١] .

وهذا ما أثبته العلم، فقد أصبح اليوم من المسلّم به أن القمر كان كتلة نارية ملتهبة ثم انطفأ بعد ذلك وخمد لهيبه.

أما عن الآيتين الأولى والثانية، فهما تخبراننا أن للشمس صفتين (سراجاً ، ضياءً)، وقد حللنا هاتين الصفتين عند حدثينا عن الشمس، وعرفنا أن الشمس نجم ينتج بتفاعلاته النووية واحتراقه الداخلي حرارة

---

١) التفسير الكبير: للرازي، ١٠/١٦٥، وانظر القرطبي ٥/١٤٩ .

قوية شديدة وضوءا، وتلك هي صفة السراج، فالضوء الذي تصدره الشمس يكون مشحونا بالحرارة على خلاف صفة الإنارة، فالنور من صفات القمر، والإنارة هي حدث يستنير به المكان من دون حرارة، إذا فالقمر ليس مضيئا بذاته، ولكنه يعكس الضوء الذي يستقبله من الشمس.

كذلك فإن هذه الحقيقة قد أصبحت بعد الإكتشافات العلمية الحديثة من المسلّمات.

القمر جسم مظلم أساساً، وضوؤه انعكاس لضوء الشمس، ويتغير الجزء المضيء من القمر من يوم لآخر في الحجم والشكل، فأول ما نراه يكون خطاً رفيعاً منحنياً مستنيراً ثم يزداد حجمه شيئا فشيئا، حتى يصبح دائرة تامة ثم يأخذ في التناقص حتى يصبح خطاً في أول ظهوره، ويطلق على هذه الأشكال (أوجه القمر) [١] .

وقد أشار لذلك وفرق بين ضوء الشمس ونور القمر كل من الإمام الرازي والحافظ ابن كثير (رحمهما الله).

يقول ابن كثير "يخبر الله تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وجعل شعاع القمر نورا، وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل" [٢] .

---

١) المنظومة الشمسية: عبد الأمير المرتضى المؤمن، ص ١٧١ .

٢) تفسير القران العظيم: ابن كثير، ٣/ ١٨١ .

أما الرازي فيقول: "النور اسم لأصل هذه الكيفية، وأما الضوء فهو اسم لهذه الكيفية إذا كانت كاملة تامة قوية، والدليل عليه أنه سبحانه وتعالى سمّى الكيفية القائمة بالشمس (ضياءً) والكيفية القائمة بالقمر (نوراً) ولا شك أن الكيفية القائمة بالشمس أقوى وأكمل من الكيفية القائمة بالقمر، وفي موضع آخر قال تعالى: (وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا) [١] " [٢]

إن هذه المعاني تتفق تماماً مع الحقائق العلمية الحديثة، فسبحان الله العليم الخبير.

(وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ) :

يقول الرازي: "اعلم أن أصل الكلمة من الاجتماع، يقال: وسقته فاتّسق، كما يقال وصلته فاتّصل، أي جمعته فاجتمع، ويقال: أمور فلان مجتمعة على الصلاح. كما يقال منتظمة، وأما أهل المعاني، فقال ابن عباس: إذا اتسق: أي استوى واجتمع وتكامل وتم واستدار، وذلك ليلة ثلاثة عشر إلى ستة عشر" [٣].

وعند الشوكان " (والقمر إذا اتسق) أي اجتمع وتكامل، وقال الفرّاء: اتّساقه: امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة ثلاث عشرة واربع عشرة إلى

---

١) سورة الفرقان الآية (٦١) .

٢) التفسير الكبير: للرازي، ٩/ ٣٥ .

٣) التفسير الكبير للرازي ١٦ /١٠٩ .

ست عشرة، وقد افتعل من الوسوق الذي هو الجمع، قال الحسن: اتسق امتلأ واجتمع، وقال قتادة استدار" [١] .

" (والقمر إذا اتسق)، مشهد كذلك هادئ رائع ساحر، وهو القمر في ليالي اكتماله، وهو يفيض على الأرض بنوره الحالم الخاشع الموحي بالصمت الجليل، والسياحة المريرة في العوالم الظاهرة والمكنونة في الشعور.." [٢] .

فالاتساق كما اتضح لنا هو الاستدارة، أي قد تكامل ليكون على صورة البدر المستدير، وذلك يتم عندما يمر في منازله المعروفة ويرتقي شيئا فشيئا ويجتمع حتى يتسق ويكتمل، فهذا الكلام يسوقنا للحديث عن منازل القمر بين العلم والقرآن، وإليك البيان.

منازل القمر:

قال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)[٣] . وقال تعالى: (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) [٤] .

---

١) فتح القدير: للشوكاني، ٥/٥٧٧ .

٢) في ظلال القرآن: سيد قطب ٦/ ٣٨٦٩ .

٣) سورة يونس الآية (٥) .

٤) سورة يس الآية (٣٩) .

يشير قوله تعالى: (قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ) إلى تنقلات القمر في منازل التي يترلها في كل يوم من الشهر.

"يقول الحافظ ابن كثير: وقدّر الله تعالى القمر منازل، فأول ما يبدو صغيرا ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، وقوله تعالى: (وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) فالشمس تعرف الأيام وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام" (١) .

ويصف القرطبي ــ رحمه الله ــ منازل القمر هذه فيقول:

"قوله تعالى: (قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ). ففي هذا جوابان: أحدهما قدرناه ذا منازل، مثل: (واسأل القرية)، والتقدير الآخر، قدّرنا له منازل، والمنازل (ثمانية وعشرون مترلاً) يترل القمر كل ليلة منها بمترل، وهي : السرطان، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الذراع، النشرة، الطرف، الجبهة، الخراثان، الصرفة، العواء، السماك، الفغر، الزبانيان، الإكليل، القلب، الشولة، النسائم، البلدة، سعد ذبح، سعد بلع، المفرغ المؤخر، بطن الحوت.

فإذا صار القمر في آخرها عاد أولها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة، ثم يستتر ثم يطلع هلالاً، فيعود في قطع الفلك على المنازل،

---

١) تفسير القران العظيم: لابن كثير، ١٨١/٣ .

وهي منقسمة على البروج لكل برج منزلان وثلث، فللحمل السرطان والبطين وثلث الثريا، وللثور الثريا والدبران وثلثا الهقعة، وهكذا [١] .

"وأما قوله تعالى: (حتى عاد كالعرجون القديم). قال الزجاج: هو عود العذق الذي عليه الشماريخ، وهو فعلون من الانفراج وهو الانعطاف، أي سار في منازله، فإذا كان في آخرها دقّ واستقوس وضاق حتى صار كالعرجون القديم، قال القرطبي: (العرجون) الذي يبقى من الكباسة في النخلة إذا قطعت، و (القديم) البالي" [٢] .

وقال الزمخشري في قول الله تعالى: (حتى عاد كالعرجون القديم) "وهو عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة، والقديم المحلول، إذا قدم ودق وانحنى واصفرّ فشبه به من ثلاثة أوجه" [٣] .

بعد هذا التطواف الموجز عن منازل القمر في كتب المفسرين نأتي إلى حديث علماء الفلك عن منازل القمر وتحركاته.

يقول إبراهيم غوري في كتابه (القمر): "يتخذ القمر خلال دورته الشهرية، أي الانتقالية حول الأرض مواقع محددة بالنسبة إليها وإلى الشمس، وله في كل تلك المواقع مظهر خاص راجع إلى مقدار المساحة التي يغمرها النور من وجهه، والشكل الذي يتخذه ذلك الجزء المغمور

---

١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢١/٨ .

٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٢/٨ .

٣) الكشاف: للزمخشري، ٣٢٣/٣ .

بالنور، وتدعى تلك المظاهر باسم (منازل القمر) أو (وجوهه) علماً أن شروق القمر، يتأخر كل يوم عن اليوم السابق بمقدار ٥٠ دقيقة وسطياً، وأول تلك الوجوه:

١) **الهلال:**

وهو أ ول مترل من منازل القمر، إذ يكون القمر يومها، وهو في طريقه إلى سماء نصف الكرة الشمالي، فيرى يومها في الأفق الغربي، بعد غروب الشمس بقليل، وقرب المكان الذي تغرب فيه الشمس، وقد أنارت الشمس أقصى الطرف الأيسر من السطح المعتم المتجه نحونا، ولا يتمكن من رؤية ذلك الهلال النحيل، إلا أصحاب البصر الحاد، وخلال فترة قصيرة، إذ لا يلبث أن يغيب بعدها تحت الأفق.

ويزداد عرض ذلك الهلال يوماً بعد يوم حتى إذا ما انقضت مدة (٦) أيام و (١٠٦) ساعة و (١١) دقيقة، على بداية الشهر القمري، فإن القمر يدخل مترلاً جديداً، إذ يتخذ شكلاً مغايرا للشكل السابق، حيث يقال أنه في التربيع الأول.

٢) **التربيع الثاني:**

في اليوم السابع من الشهر القمري، يلاحظ القمر بعد غروب الشمس بقليل، في وسط السماء، وقد غمر النور نصفه الأيسر، وعندما يقال: إنه في (التربيع الأول) إذ يكون قد أمضى ربع دورته

الانتقالية الشهرية حول الأرض، وذاك هو المترل الثاني من منـــازل القمر .

٣) **الأحدب الأول:**

وفي اليوم الثامن من الشهر القمري وما بعده يزداد القسم المنار من سطح القمر، كما يرى بعد غروب الشمس، وهو أقرب إلى الأفق الشرقي، حيث يصبح القسم الأكبر منه مُناراً، وذلك بعد مضـــي (١١) يوماً على بدء الشهر القمري، ويكون تحدّبه نحو يمينه، أي في اتجاه الشرق، ويدعى القمر، عندها الأحدب الأول، وهـــو ثالـــث مترل من منازل القمر .

٤) **البدر:**

وفي ليلة النصف من الشهر القمري يكون القمر قـــد بلـــغ نقطـــة (الترول)، وقد غمر النور كامل وجهه، ويتفق إشراقه مـــن الأفـــق الشرقي مع غياب الشمس في الأفق الغربي، ويُقال يومها: إن القمر في حالة تقابل مع الشمس إذ يكون هو والشمس وبينـــهما الأرض على استقامة واحدة، ويدعى القمر عندها (بدرا)، وذاك هو رابـــع مترل من المنازل التي يبلغها القمر بعد مضي (١٤) يوماً على بداية الشهر القمري.

٥) **الأحدب الثاني:**

ويأخذ القمر يوما بعد يوم بالتأخر في الشروق بمقدار (٥٠) دقيقة وسطياً. كما يأخذ النور بالانحسار عن الجزء الأيسر منه، حتى إذا ما انقضت أربعة أيام على الحالة التي كان القمر فيها بدراً، رسم الخط الفاصل بين القسم المنار منه والقسم المظلم، خطاً منحنياً تحدّبه نحو الطرف الأيسر منه ويدعى القمر عندها (الأحدب الثاني) وهو المترل الخامس من منازل القمر.

كما يلاحظ أنه بدءاً من اليوم السادس عشر من الشهر القمري، يأخذ القمر بالاقتراب من الأفق الجنوبي يوما بعد يوم، إذ يكون قد انتقل إلى سماء نصف الكرة الجنوبي.

٦) **التربيع الثاني:**

وعندما يمضي من الشهر القمري (٨ /١ر٢٢) يوم، تنجد أن النور لم يعد يغطي إلا النصف الأيمن فقط من سطحا القمر، وذلك هو المترل السادس من منازل القمر الذي يدعى (التربيع الثاني) ويلاحظ أن شروقه يومها يتأخر حوالي (٥) ساعات تقريبا بعد غروب الشمس، كما يرى نهاراً وهو يتحرك شيئا فشيئا في اتجاه الأفق الغربي، حيث يقترب منه ظهيرة ذلك اليوم.

٧) **الهلال الثاني:**

وفي الأيام الثلاثة التي تلي التربيع الثاني يلاحظ أن النور لم يغطي إلا قسماً صغيرا من طرفه الأيمن، متخذا شكل هلال يرى في النهار، ويكون تحدّبه مساءً عند اقترابه من الأفق الغربي نحو يمين القمر، وذاك هو المترل السابع من منازل القمر.

٨) **المحاق:**

وفي آخر يوم من الشهر القمري، يكون القمر قد بلغ نقطة الصعود، وأصبح بين الأرض والشمس على استقامة واحدة، وقد غمر الظلام كامل وجهه المتجه نحونا، ويكون قد غاب تحت الأفق مع مغيب الشمس، فلا يُرى، ويقال لحالته تلك (حالة الاقتران). أما مترله وهو المترل الثامن فيُدعى (المحاق)، إذ يقال للقمر يومها إنه (محاق) لأنه (محق) ولا تمكن رؤيته.

القمر الرمادي:

في بداية الشهر القمري، حين يكون الهلال نحيلاً، نجده وقد احتضن القسم المظلم الباقي من القمر، والذي يبدوا لأعيننا على شكل دائرة سوداء، ولو نظرنا لتلك الدائرة بالمنظار، لرأينا غشاءً خفيفا من نور رمادي اللون يغطيها، وما مصدر ذلك النور إلا

الأرض التي تعكس نورها نحوه، مما يجعل ذلك القسم المظلم من القمر يرى بالعين المجردة.

بداية الشهر القمري وأول وجوه منازل القمر:

يبدأ اليوم عند المسلمين من بعد غروب شمس اليوم السابق، بينما يبدأ اليوم عند بقية الشعوب في منتصف الليلة التي تلي نهار اليوم السابق. وهذا مما جعل أول وجه من وجوه القمر لدى المسلمين (الهلال)، على حين تعتبر بقية شعوب العالم وجه القمر المسمى (محاقاً) أول وجوهه أي منازله [١] .

وصدق الله العظيم حيث يقول: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) [٢] .

---

١) القمر، إبراهيم حلمي غوري، ص١٤٨ .

٢) سورة البقرة الآية (١٨٩) .

(٢)

الحشرات المذكورة في القران الكريم

مجلة منار الإسلام العدد ٣٤١

الحشرات هي أكثر الحيوانات تنوعا وقد تميزت بعدة مزايا جعلت لها هذه السيادة العددية في الأنواع منها كفاءة التكاثر العالية وقصر الأجيال وصغر الحجم والتغذية على كل المواد والقدرة على الطيران عند كثير منها .

وتتضح هذه الأعداد الكبيرة بالنظر إلى الجدول الذي معنا فمن الرتب الحشرية ما يفوق عدد أنواعها ربع المليون كرتبة الخنافس . وإذا نسبنا عدد أنواع الحشرات وحدها إلى عدد أنواع الحيوانات الأخرى فنجدها أكثر من ٥٠ % فالحشرات أكثر من نصف المملكة الحيوانية في عدد الأنواع مما يوضح حجمها الكبير في الحيوانات .

ومن ميزات الحشرات أيضا النمو في مراحل تسمى تطورا (وبالأصح تحولاً) كاملا أو ناقصا وكذا من مزايا بعض الحشرات الثبات الشتوي والكمون الصيفي .

لهذا وغيره فإن الحشرات هي مجال واسع للتفكر في آيات الكون الذي يقود بإذن الله تعالى إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ويغذي الإيمان عند المؤمنين .

جدول لعدد الأنواع في بعض الرتب الحشرية

الرتبة	عدد الأنواع
الخنافس	٢٨٠٠٠٠
حرشفية الأجنحة	١١٣٠٠٠
غشائية الأجنحة	١٠٨٠٠٠
ثنائية الأجنحة	٨٥٠٠٠
نصفية الأجنحة	٦٥٠٠٠
مستقيمة الأجنحة	٢٠٠٠٠
متساوية الأجنحة	٢٠٠٠

هذا وقد ذكر القران الكريم الحيوانات مجملة في كلمة "دابة" ثم ذكر حشرات بعينها تفتح لنا مجالا رحبا للتأمل ويذكر أن بعض العرب من غير المسلمين تعجبوا من ذكر الحشرات وغيرها في القران ككتاب هدى وما دروا أن هذه تضيف إلى إعجاز القران العلمي صدق رسالة الإسلام التي تكتشف للناس على مر العصور .

تهدف هذه الدراسة المقتضبة إلى إبراز بعض الجوانب في الحشـــرات الـــتي تناسب ذكرها في قضية البعث والنشور خاصة أو للتحدي والإعجاز .

كلمة دابة:

تدخل الحشرات في لفظ "الدابة" المتكرر في القران بمفهومه الحيواني العـــام وقد ذكر القران هذه اللفظة تكرارا للتأمل والتدبر فمنها على سبيل المثال:

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ) [١] فهي إشارة لبدء التخلق من ماء أو تكوينها بنسبة كبيرة من الماء ودور ا لماء الحيوي فيها .

(وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَـــمٌ أَمْثَـــالُكُم) [٢] وهي إشارة للتنوع والتفاهم والتشابه بين أفراد الأمة الحيوانية ـــ النـــوع الحي ـــ .

(وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِـــنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) [٣] . وهي إشارة للتنوع كمجال للتفكر في قدرة الله عز وجل .

(وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [٤] وهي إشارة عامة لما يصله الإنسان من آيات في هذه الدواب ومنها الحشرات كدلالات على

---

١) سورة النحل الآية (٤٥) .

٢) سورة الأنعام الآية (٣٨) .

٣) سورة فاطر الآية (٢٨) .

٤) سورة الجاثية الآية (٤) .

قدرة الله وحكمته ورحمته . ولكننا ندلف إلى الآيات التي ذكرت حشرات بعينها لنفصّلها في فقرات بأسماء هذه الحشرات المذكورة.

١ـ الجراد:

الجراد أمة عظيمة وجند من جنود الله ورد ذكره في القران الكريم مرتين:

(خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ) [١] .

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ) [٢] .

أما الآية الأولى فهي تشبّه خروج الناس من القبور يوم القيامة بالجراد المنتشر ونودّ أن نقف عندها من خلال نظرتنا لطبيعة الجراد . فالجراد الصحراوي مثلا يضع بيضه في الرمال داخل حفر شبيهة بالمقابر بل أن كل كمية من البيض في داخل الحفرة مغطاه بكيس أبيض . ثم هذه لا تفقس وتخرج إلى السطح إلا إذا نزل ماء السماء بأي كمية كانت فتبدأ في الخروج تماما كما يوضح الحديث النبوي الشريف خروج الناس بمطر القيامة "ثم يترل الله مطرا فينبتون كما ينبت البقل" ـ [متفق عليه] .

وليس ذلك فحسب بل يخرج الجراد فرادى متتابعا من الحفر ويكون في طور انفرادي ثم يتجمع في أسراب بكميات كبيرة ، وهكذا يكون في الطيران في اتجاه واحد بسرعة وبكميات مهولة يصل حجم السرب

---

١) سورة القمر الآية (٧) .

٢) سورة الأعراف الآية (١٣٣) .

المتوسط ٤٠,٠٠٠ جرادة ويذكر أن الناس يخرجون سراعا ويتجمعون في اتجاه واحد إلى أرض المحشر .

هذا من جانب مناسبة ذكر الجراد لقضية البعث والنشور ، ومن جانب آخر فهو يقع في رتبة مستقيمة الأجنحة وتشمل ٦٥,٠٠٠ نوع، وهو سريع النمو، فهو من الحشرات ناقصة التطور (بيضة ــ حورية ــ حشرة كاملة) ولها فم قارض ماضغ وتأكل الجرادة أضعاف وزنها، وبالتالي فهو مدمّر للزرع وله آثار اقتصادية سلبية، فقد قال العربي عندما رأى الجراد بسربه الضخم قد هبط على زرعه: "مر الجراد على زرعي فقلت له مهلا ولا تولع بأفساد فقام خطيب منهم على سنبلة إني مسافر ولا بد من زاد" ، وجاء في معنى الحديث دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم على الجراد "اللهم أفسد بيضه وأقتل صغاره وأهلككباره وامسك أفواهه عن أقواتنا ومعايشنا" فقال له الصحابي معاذ بن الجبل أتدعو يا رسول الله على جند من جنود الله؟ فقال "إنما هي بثرة حوت في بحر" .

أما الآية الثانية فتتحدث عن عقاب لآل فرعون وهي آيات تصدق رسالة موسى ــ عليه السلام ــ : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ) ونلحظ ورود الطوفان ثم الجراد في الترتيب، وهو يناسب الفيضان أو المطر ثم خروج الجراد كما تقدم.

٢_ الذباب :

ورد ذكره في الآية (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) [١] ينتمي الذباب لرتبة ثنائية الأجنحة، التي تحتوي على ٨٥٠٠٠ نوع، وهو ناقل لميكروبات سالبة للصحة، كما في الذباب المترلي فمع صغر حجمه وعدم الاهتمام به يوضح القران الإعجاز في تركيبه فيضرب به مثلا ليتحدى الناس كل الناس مجتمعين أن يخلقوا ذبابا، والذباب يناسب هذا التحدي ففيه بدأ علم الوراثة إذ كان هنالك العمل والملاحظة على ذباب الفاكهة كما هو معلوم وعنده وصلت حيرة العلماء أقصاها فلم يتعدّوه فالذباب ليس أصغر الحيوانات، ولكنه أوضحها من الناحية الوراثية ــ أربعة تجمعات وراثية فقط ــ أو في المعلومات الجينية داخلها فكل شيء اليوم في تركيب الذبابة الوراثي معلوم تقريبا، ولكن لم ولن يستطيع البشر ولو اجتمعوا إلى خلقه سبيلا .

كذلك فإن الذباب يسلب الإنسان دوما طعامه ثم لا يستطيع الإنسان أن يتحصّل ما سلبه الذباب مهما فعل لسبب بسيط جدا، هو أن الذباب يبدأ هضم طعامه بمجرد أخذه فتتغير طبيعة الطعام ، ولن يستطيع الإنسان إرجاع الطعام كما كان .

---

١) سورة الحج الآية (٧٣) .

٣ _ البعوض :

ورد ذكر البعوض في الآية (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) (١) . ينتمي البعوض لتربة ثنائية الأجنحة كذلك، وهي ذات تطور كامل [بيضة، يرقة، شرنقه، حشرة كاملة] . والبعوض حشرات ليلة فمها ثاقب ماص، وهي ناقلة لميكروبات مرض الملاريا والحمى الصفراء. فرغم صغرها فهي ذات تأثير بالغ على حياة الإنسان . وقيل المراد (فما فوقها) يعني دونها في الصغر. وتتغذى أنثى بعوض الأنوفليزا على الدم وبالتالي فهي تنقل ميكروب الملاريا، ومما يذكر أنها تفرز مادة ضد تجلط الدم فيخرج بفمها الماص دون أن يتجلط وفي صغر الحيوان مع تركيبة الدقيق ومناسبته لمعاشه أسلوب حياته آيات كما في ضخامة الحيوان كذلك الآيات والعبر.هذا وقد تخيل أحد الشعراء البعوضة بدورة دموية وعظام فأنشد قائلا:

يا من يرى من البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها
والمخ في تلك العظام النحل
أمنن علي بتوبة تمحو بها
ما كان مني في الزمان الأول

---

١) سورة البقرة الآية (٢٦) .

٤ ـ الفراش :

ذكر الفراش في الآية (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) [١]
ينتمي الفراش "وأبو الدقيق" لرتبة الحشرات من حيث عدد الأنواع إذ تحتوي على ١١٢,٠٠٠ نوع من الحشرات. وهي حشرات كاملة التطور فتمر بمراحل : بيضة ـ يرقه ـ شرنقة ـ حشرة كاملة .

يرقات الفراش تشكل آفات زراعية، فهي ذات فم قارض ماضغ، وبالتالي فلها تأثير اقتصادي سالب أما الحشرة الكاملة ففمها خرطومي شافط وهي تتغذى على الأزهار .

تشبيه الناس يوم القيامة بالفراش يوضح خطورة الموقف إذ نرى الفراشة "أبو الدقيق" يتميز بخفة الوزن والحيرة أو الاضطراب في السلوك في الطيران كأنه يسير إلى لا اتجاه وهذا ما يوصف في موضوع آخر (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) [٢] بل الأخطر من ذلك تجمع الفراش "من أبي الدقيق" على النار والوقوع فيها، وهذا ما ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وتشبيه لحاله والناس كمن أوقد نارا وصار كالفراش يقع فيها وهو يقوم بحجزه عن النار فعندما نقرا وتسمع (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ

---

١) سورة القارعة الآية (٤) .

٢) سورة الكهف الآية (٩٩) .

كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) [١] . ينبغي أن يشتد خوفنا حيث يؤتى بجهنم والحساب، أو عند الصراط وتحته جهنم، ويقع من يقع وينجو من ينجو.

وكذلك من وجهة أخرى فإن مرور الفراش بمراحل مختلفة في تطوره وخاصة خروجه من طور الشرانق – حيث التحوصل – إلى الحشرات الكاملة كأنه خروج من الموت إلى الحياة "البعث" أو من السكون إلى الحركة، ويذكر أن الحشرات الكاملة تخرج من طور الشرانق في كميات مهولة وفي واحد عند فلق الإصباح مما يماثل قضية البعث والنشر أيضا.

٥ _ النحل :

النحل حوالي ١٠,٠٠٠ نوع منها يعيش في ممالك تتكون المملكة من ملكة واحدة ومئات الذكور والآلاف الشغالات .

ذكر النحل في القران الكريم في سورة سميت بإسمه حيث يقول الحق تبارك وتعالى : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ) [٢] .

---

١) سورة القارعة الآية (٤) .

٢) سورة النحل (٦٨ –٦٩) .

ففي هاتين الآيتين إشارات عديدة للنحل وإنتاج العسل أصبحت إعجازا علميا واضحا لا زال يتكشف، وقد تحدث عن ذلك بعض الكتاب والباحثين، ويمكن أن نلخص الأمر في النقاط التالية:

ـ ذكر مساكنها أولا من جبال وشجر وغيرها، وهذا ما تبدأ به خلية النحل المتكونة حيث تبدأ في إيجاد مسكن أولا ثم يرسل إلى جلب الغذاء.

رتبة الآية المساكن للنحل (مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) وهذا ما يفضله النح مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ حسب التجربة والبحث حيث يفضل النحل الشجر على ما يعرشه الناس ــ من خلايا صناعية ــ وإذا وجد نفسه بالقرب من الجبال فهو يلجأ من الشجر إلى الجبال.

وكذلك يذكر أن جودة العسل المنتج ترتب حسب ترتيب هذه المساكن، فعسل الجبال هو الأجود يليه عسل الشجر وأخيرا العسل المنتج من الخلايا الصناعية (وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) .

وتأتي الآية (ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ) وثم للتراخي فتبدأ بعد فترة في جلب معظم الغذاء وكلمة (كُلِي) تفيد العمق فالنحل يزور معظم الأزهار وأتت هنا كلمة ثمرات دالة على الثمار أو باعتبار ما يتحصل من الزهر .

ثم يأتي التعقيب الفوري بـ (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً) فتبدأ النحلات بعملية تصنيع النحل بمجرد جمع الرحيق كما ترجع النحلات إلى خلاياها لا تضلها وتوضح لبقية النحل في الخلية موضع الأزهار بحركات أو

رقصات في عدد من الدورات واتجاه معين من الشمس فتوضح الموضع بالضبط !

ثم تذكر الآية (يَخرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّختَلِفٌ أَلْوَانُهُ) فيأتي من عدد (بطون) هذه النحلات الشراب مختلف اللون فهو مختلف التكوين الكيمائي ليس من ناحية العناصر المكونة وإنما من ناحية العناصر المكونة وإنما من ناحية نسب هذه العناصر، فنجد العسل بألوان مختلفة من الأسود إلى الأحمر والأصفر وبدرجات متفاوتة إلى الأبيض.

والعسل الأسود إشارة إلى تركيز نسبة الحديد فيه مثلا. ويذكر أن اختلاف الألوان والنكهة في العسل يعود إلى اختلاف الأزهار ــ أي النباتات ــ الذي يرجع إلى اختلاف التربات والأراضي.

وأخيرا فإن الآية تذكر (فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ) وهذا يؤكده البحث العلمي اليوم فالعسل يعالج ويدخل في علاج العديد من الأمراض يشمل العيون والجهاز العصبي الدوري والتنفسي والأنف والأذن والحنجرة وغيرها، وتختم الآية بأن (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

وتجدر الإشارة إلى أن الخطاب في الآيتين كان بصيغة التأنيث ــ أن اتخذي ، ثم كلي ، فاسلكي ــ والمعروف أن الإناث ــ من الشغالات ــ هي التي تقوم بهذه الأعمال كلها، وتنتمي النحلة إلى رتبة غشائية الأجنحة .

٦ _ النمل :

ذكر النمل في قوله تعالى :(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [١] والسورة نفسها التي سميت سورة النمل، وهنا إشارة إلى الآيات في هذه المخلوقات .

يتبع النمل كذلك رتبة الحشرات غشائية الأجنحة، وهي ثالث رتبة الحشرات من حيث الأنواع والنمل أيضا حشرات اجتماعية تجتمع ضمن المملكة، وتتكون المملكة من ملكة وشغالات وذكور كالنحل، ويعيش حياة منظمة جدا، والأعمال فيها مقسمة على الأفراد جميعا، والأدوار معروفة وهي مهيأة، تقطع النملة يوميا عشرات الأميال، فهي مثال للنشاط !

ولكن يلفت الإنتباه في هذه الآية هو مخاطبة النملة لبقية النمل بمعلومات كثيرة مما يفيد وجودة لغة تفاهم بينها لا تقتصر على الناحية الكيميائية ـــ الإفرازات الكيميائية فقط كما هو معروف عن الحشرات الآن ـــ ، مما دفع بعض أهل اللغة ليبحث في هذه المخاطبة التي صاغها القران باللغة العربية فقال: " إن هذه النملة نادت بحرف النداء "ياء" ونبهت بـــ "أيها" وسمّت "النمل" وأمرت بـــ "ادخلوا" وحذرت "لا

١) سورة النمل الآية (١٨) .

يحطمنكم" وخصصت "سليمان" وعممت "وجنوده" وأعذرت بـ "وهم لا يشعرون" فهذه بالعربية حديث طويل، وبالتالي هو نتاج تفاهم واضح بلغة النمل.

٧ ـ دابة الأرض :

جاء ذكرها في الآية (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ) [1] ــ أو الأرضة أو النمل الأبيض ــ تنتمي لرتبة الحشرات متساوية الأجنحة وهي حوالي ٢٠٠٠ نوع من الحشرات ناقصة التطور تعيش في حياة اجتماعية كذلك في مملكة كالنحل والنمل ومهام الفرد فيها معروفة من دفاع وعمل وتكاثر. تعيش هذه الحشرات في خفاء داخل مساكنها تحت الأرض وتتخذ أنفاقا ومساكن مرتفعة من الأرض. وفي بناء مسكنها آية واضحة فهو بنيان مرتفع جدا مقارنة بحجمها وضعفها ثم هو مقسم في الداخل إلى غرف أو حجرات متناسبة بدقة في النسب والمداخل والتكوين، وتتخذ مادة البناء من التربة وتبللها بلعابها ثم يكون الرجيع مادة لاصقة وتجف وتصبح بمثابة الإسمنت للبشر.

ذكرت الآية الكريمة أن دابة الأرض دلت الموجودين في مملكة سليمان على موته، وذلك بأكلها لمنسأته ــ وهي عصاه ــ التي كان يتكئ عليها. ويذكر أن الأرض هنا مصدر في اللغة، وتعني القرض.

---

١) سورة سبأ الآية (١٤) .

كذلك فهي دابة القرض "تأرض أي تقرض" أي أنها تقرض بفمها والمعروف أن فم هذه قاضم ماضغ محلل للمواد الخشبية وبعض المحاصيل وبالتالي فقد التهمت عصاة سليمان حتى انهار جسده فعرف الإنس والجن موته. وتشكل هذه الحشرات خطورة على المباني والأثاثات الخشبية لأنها تقرض الخشب وتحلله ويحتاج الأمر لوقاية وعلاج إذا بدأ .

٨ ــ الخنافس :

ذكر القرآن (فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ) [١] كما ذكر (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ) [٢] . والآية الأولى تتحدث عن نصح يوسف (عليه السلام) لأهل مصر بأن يحفظوا ــ يخزنوا ــ الحبوب من أقواتهم بسنابلها وهي أجود طريقة للحفظ في المخازن حيث لا تجد آفات المخازن ــ وهي غالبا السوس من الخنافس ــ طريقتها لجنين البذرة فهي وقاية طبيعية ممتازة، وكذلك الآية الثانية أشارت للعقاب على آل فرعون، بإرسال الطوفان والجراد والقمّل وترتيب القمّل بعد الجراد فقد يفيد أنه الوضع الطبيعي فبعد أن يلتهم الجراد الأخضر من الزرع يقضي السوس على الجاف منه. والخنافس تنتمي لرتبة الحشرات غمدية الأجنحة، وهي أكبر رتبة في الحشرات فتحتوي على ٣٥٠,٠٠٠ نوع من الحشرات منها الفصيلة المعروفة بفصيلة السوس التي

---

١) سورة يوسف الآية (٤٧) .

٢) سورة الأعراف الآية (١٣٣) .

تحتوي على ستة آلاف نوع وهي حشرات كاملة التطور، وفمها قارض ماضغ، وبالتالي تسبب أضرار كبيرة في المحاصيل وهي آفات مخازن كذل، ولكن منها المفيد للإنسان كذلك لأنها تتغذى على آفات أخرى.

أما القمل فهو كذلك أنواع فمنه الحشرات المتطفلة على الثديات والطيور ومنه قمل النبات كالمن والعسلة. ويتبع لرتبة نصفية الأجنحة، ويعتبر من أضر الآفات الماصّة لعصارة النباتات ونقل الأمراض النباتية الفيروسية ويفرز القمل الندى العسلي الذي تتكاثر عليه الفطريات المؤثرة في العمليات الفسيولوجية للنبات.

الخلاصة

ذكرت آيات القران الكريم الدواب عموما لما فيها من آيات وعبر وذكرت بعض الحشرات خصوصا ضاربة بها الأمثال فمشبهة بها الناس يوم البعث والنشور والتحدي أحيانا وفي ذلك إعجاز علمي ولطائف يمكن أن تكتشف يوما بعد يوم.

ثم إن في تركيب هذه الحشرات وسلوكها وتفاهمها، آيات تدل على عظمة الله وحكمته ورحمته. وفي آثارها سلبا أو إيجابا على البشر آيات للبشر للتفكر والتدبر.

هذه الدراسة المقتضبة تشير إشارات سريعة لكل ما تقدم لتكون تمهيدا وحافزا لدراسات أعمق وأكبر، ولكنها تبرز مناسبة ذكر الجراد والفراش خصوصا في قضية البعث والنشور.



المراجع:

١. القران الكريم.
٢. تفسير ابن كثير.
٣. تفسير الجلالين.
٤. زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني.
٥. تفسير وبيان كلمات القران الكريم حسنين محمد مخلوف، مكة المكرمة.
٦. مقدمة في بيولوجية الحشرات وتنوعها دبلي هـــ.ق وآخرون، ترجمة لطفي عبد السلام، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٣٨.
٧. الحشرات الناقلة للأمراض في السودان، فيصل تاج الدين أبو شامة، ترجمة أبوبكر الصديق محمد منصور، ١٩٩٣م.



(٣)

الرياح في ضوء القران الكريم

كثير من النباتات لا تُلقَّح إلاَّ بواسطة الرِّياح

مجلة منار الإسلام العدد ٣٣٧

القران الكريم معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخالدة، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] . والذي تحدّى به الله الناس أجمعين إلى يوم الدين وهو في أصله كتاب هداية ولكن هذا لا يمنع من دراسة الآيات الكونية فيه بشرك عدم التأثير على الهدف الأساسي للقران وهو هداية الناس إلى طريق ربها.

والقران حافل بالإشارات العلمية الكونية، وكل منها يدعو الفطرة الموحدة لمزيد من التوحيد والخشوع والإخبات لله سبحانه، وأكثر الناس إدراكاً لها المتخصصون في الكونيات وعلوم الطبيعة.

ومن هذه الآيات الكونية: الآيات المتعلقة بالظواهر الجوية في الكون، فيما يتعلق بوصف الرياح وتأثيرها ووظائفها ودورها في إنشاء السحب وتلقيحها، ثم نزول المطر والبرد، وهذه الحقائق من أدق الأمور التي توصل إليها العلم الحديث.

١) سورة فصلت الآية (٤٢) .

الرياح لغة: مفردها ريح، وهو نسيم الهواء، وكذلك نسيم كل شـــيء [١].

المصطلح العلمي للرياح:

حركة جزيئات الهواء والغازات المكونة للغلاف الجوي، والرياح توصف أنها كمية من موجّهة لها سرعة واتجاه [٢].

الرياح والريح في القرآن الكريم:

وردت كلمة (الرياح) في القران الكريم (عشر) مرات ووردتت كلمة (ريح) (ثماني عشرة) مرة.

وكلمة (الرياح) المجموعة، تستعمل في الخير والرحمة حيثما وردت في القرآن الكريم: (مبشرات، حاملات، مرسلات، ناشـــرات، ذاريـــات، لواقح).

قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ) [٣]. وقال تعالى: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) [٤].

---

١) لسان العرب لابن منظور، مادة (روح)، ٢/٤٥٥.

٢) مجلة الإعجاز العلمي، عدد (٥) ص١٠، تصدر عن هيئة الإعجاز العلمي في القران والسنة.

٣) سورة الروم الآية (٤٦).

٤) سورة الحجر الآية (٢٢).

أما كلمة (الريح) المفردة فتستعمل في الشر والعقوبة (عاصف، قاصف، عقيم، صرر).

قال تعالى: (مَّثَلُ الَّذينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الـــرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ) (١) . (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الـــرِّيحَ الْعَقِـــيمَ) (٢) (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ) (٣) . (وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًـــا فَـــرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ) (٤) .

إلا في موضعين من القران الكريم، لم تذكر في العقوبة: في قوله تعـــالى (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِـــم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) (٥) . وقوله تعالى: (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِـــدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ) (٦) .

فعندما ترد كلمة الرياح بصيغة الجمع يعني ذلك أن الرياح بهذه الصفة المقرونة بها قد تحدث في الوقت نفسه على أماكن مختلفة مـــن الكـــرة الأرضية مثل تصريف الرياح أو يرسل الرياح مرسلات وناشرات .

---

١) سورة إبراهيم الآية (١٨) .
٢) سورة الذاريات الآية (٤١) .
٣) سورة الحاقة الآية (٦) .
٤) سورة الروم الآية (٥١) .
٥) سورة يونس الآية (٢٢) .
٦) سورة يوسف الآية (٩٤) .

إما إذا جاءت بالإفراد فإنها تأتي مقرونة بمواصفات خاصة كجسد واحد يؤدي غرضا محددا مثل ريح صرصر، الريح العقيم، فريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاء تؤدي غرضا بعينه.

أقوال القدماء في الرياح:

قالوا: الرياح أربع: الشمال وتهب من الشمال، والجنوب وتهب من الجنوب، والصبا تهب من الشرق، والدبور من الغرب، تسمّى الصبا قبولا لأنها استقبلت الدبور، وما بين كل واحدة من هذه المهاب فهي نكباء (١) .

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ الرياح ثمان: أربع منها عذاب وهو: القاصف، والعاصف، والصرر، والعقيم. وأربع منها رحمة: الناشرات، المبشرات، المرسلات، الذاريات (٢) . فرياح الخير والرحمة هي الشمال والصبا والجنوب، أما الدبور فريح العذاب (٣) .

الرياح في العلم الحديث:

لقد توصل العلم الحديث إلى مجموعة من الحقائق المتعلقة بالرياح ووظائفها. وجاءت هذه الحقائق موافقة لما أخبر به العزيز الحكيم قبل أربعة

---

١) تفسير الفخر الرازي، ٢/٢٢٤، دار الفكر ــ بيروت (١٩٩٣م ــ ١٤١٤هـ) .

٢) المرجع السابق ٧/١٤٨ .

٣) التفسير المنير، للدكتور وهبة الزحيلي، ٢١/١٠٣، دار الفكر المعاصر ــ بيروت، ط١ (١٤١١هـ ــ ١٩٩١م) .

عشر قرنا من الزمان. ويقول الدكتور مصطفى مسلم: "فلو لم يكــن في القرآن إلا هذه الحقائق لكانت كافية في تعريفنا بأن منزّل القرآن هو خالق السموات والأرض ومصرف الرياح ومنزل الماء من السماء ليحيــي بــه الأرض بعد موتها" [١] . وكذلك توصل العلم الحــديث إلى ســرٍّ نشــأة الرياح:

كيف تتولد الرياح؟

تحدث الرياح نتيجة التسخين غير المتساوي للغلاف الجوي، عــن طريق الطاقة المنبعثة من الشمس، فالمناطق الاســتوائية حرارتهــا مرتفعــة فتنخفض كثافة الهواء ويصبح ضغطه منخفضا، وبالعكس تكون درجــة حرارة الجو منخفضة في المناطق الباردة فترتفع كثافة الهواء ويصبح ضغطه مرتفعاً، وبهذا يتغير الضغط الجوي على سطح الكرة الأرضية من منطقة إلى أخرى، فهبوب الرياح وشدتها واتجاهها، تتوقف على الفرق بين ضــغطي المنطقتين وموضعهما على سطح الأرض [٢].

ونسيم البر ونسيم ا لبحر يعتبران مثالاً واضحا لطريقة تولد الريــاح، فالهواء في الصيف يسخن فوق اليابسة أسرع من الهواء الموجود فوق البحر

---

١) مباحث في إعجاز القرآن، للدكتور مصطفى مسلم، ص١٩٥، دار القلم ــ دمشق، ط٣ (١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م).

٢) انظر: الموسوعة العربية العالمية ٤٤٣/١١، مؤسسة أعمال الموسوعة، ط٢ (١٤١٩هـ ــ ١٩٩٩م) والكون والإعجاز العلمي في القرآن، ص٢٠٢ للدكتور منصور حسب النبي، دار الفكر العربي ــ مصر، ط٣ (١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م).

لهذا يقل الضغط فوق البر عنه فوق الماء، وينشأ عن هذا الفـرق هبـوب رياح خفيفة أو نسيم بارد من البحر إلى البر نهاراً وينعكس هذا الاتجاه ليلاً حيث يهب النسيم من البر إلى البحر [١] .

تتحكم الرياح الجارية في مقدار كمية المطر الساقط على الأرض.

أنواع الرياح:

وجد علماء الأرصاد أن للرياح نوعين من الدورات: الدورة العامة للرياح، والدورات النسبية الشاملة للرياح، وهناك رياح محلية ورياح موسمية، وسندرس كلاً منها بشيء من التفصيل:

أولاً: الدورة العامة للرياح:

هذه الدورة ترتبط بحركة الأرض حول الشمس وحركـة الأرض حول نفسها، وتحدث فوق قطاعات كبيرة من سطح الأرض، وتسـمى هذه الرياح بالرياح السائدة، وتنتظم في هبوبها وفي اتجاه مسارها طـوال العام، وتتنوع هذه الرياح باختلاف خط العرض:

أ ـ الرياح التجارية:

تهب هذه الرياح من نطاق الضغط المرتفع فيما وراء المـدارين (مـدار السرطان ومدار الجدي) نحو الضغط المنخفض الاستوائي. وتنحـرف إلى

---

١) الكون والإعجاز العلمي في القرآن، ص٢٠٢ .

يمين اتجاها في نصف الكرة الشمالي، فتكون شمالية شرقية ـ وإلى يسار اتجاهها في نصف الكرة الجنوب،ي فتكون جنوبية شرقية والجزء الذي يتجه نحو الغرب من حركة الرياح التجارية يحدث بسبب دوران الأرض حول محورها، ولانتظام هبوب هذه الرياح اعتمد عليها الملاحون في الماضي في دفع سفنهم الشراعية التجارية، ولذا سميت بالرياح التجارية أو المنتظمة.

ولا توجد رياح سائدة قريبا من خط الاستواء، وعلى بعد يبلغ مداه ما يقرب من ١,١٠٠ كم على كل جانب من خط الاستواء؛ لأن الهواء هناك يرتفع إلى الأعلى بدلاً من تحركه عبر الأرض. ويطلق على هذا النطاق الهادئ منطقة الركود الاستوائي. وغالباً ما تتقارب الرياح التجارية في منطقة ضيقة يطلق عليها منطقة التقارب بين المدارية. وغالبا ما تتعطل السفن لعدة أسابيع في منطقة الركود الاستوائي.

قال تعالى: (إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[1].

وتتحكم الرياح التجارية في مقدار كمية المطر الساقط على الأرض وعندما تهب الرياح التجارية وتصطدم بسلسلة جبلية فإنها ترغم الرياح

١) سورة الشورى الآية (٣٣).

على الإرتفاع إلى الأجواء العلياء. وهذا الهواء المرتفع الساخن يتحـــول إلى هواء بارد ثم يتكثف ويسقط على الأرض مطراً.

ب ـــ الرياح الغربية السائدة:

تهب هذه الرياح من مناطق الضغط المرتفع وراء المدارين متجهـــة نحو الضغط المنخفض عند الدائرتين القطبيتين، أي في نطاق يقع بين خطي عرض ٣٠، ٦٠ شمالاً، وجنوبا من خط الاستواء ـــ وتنحرف إلى يمـــين اتجاهها في نصف الكرة الشمالي فتكون جنوبية غربية، كما تنحـــرف إلى يسار اتجاهها في نصف الكرة الجنوبي فتكون شمالية غربية.

جـــ ـــ الرياح القطبية الشرقية:

تهب هذه الرياح من منطقة الضغط المرتفع على القطب الشمالي والجنوبي، إلى نطاق الضغط المنخفض حول الدائرتين القطبيتين (٦٠) شمالاً وجنوباً، وهي باردة وتكون شمالية شرقية في نصف الكرة الشمالي وحنوبية شرقية في نصف الكرة الجنوبي.

ثانيا: الدورات النسبية الشاملة للرياح:

هي الدورات النسبية الصغرى التي يمكن أن تسبب في حـــدوث تغيرات في الرياح يوما بعد يوم. وهي حركات الهواء جول مناطق صغيرة ذات ضغط مرتفع وضغطت منخفض في الغلاف الجوي. وتتكون هـــذه المناطق في نطاق الدورة العامة الكبرى، ويتدفق الهواء نحو المناطق المنخفضة

الضغط، وتسمى مناطق الضغط الجوي المنخفض أو الأعاصير، ويتـــدفق الهواء منمناطق الضغط المرتفع والتي تسمى مناطق الضغط الجوي المرتفع أو الأعاصير المضادة.

وبنظرة عامة نجد أن الرياح تتحرك باتجاه عقارب الساعة حول منطقة الضغط المرتفع، وعكس اتجاه عقارب الساعة حـــول منـــاطق الضـــغط المنخفض في نصف الكرة الشمالي.

وتنعكس هذه الاتجاهات في نصف الكرة الجنوبي، وتتحرك كل مـــن مناطق الضغط الجوي المرتفع والضغط الجوي المنخفض ــ بشكل عام ــ مع الرياح السائدة، وعندما تمرُّ ببقعة معينة على سطح الأرض يتغير اتجـــاه الرياح .

ثالثاً: الرياح المحلية:

تهب هذه الرياح في مناطق من العالم في فترات معينة من الســـنة، وتستمر عدة أيام في كل مرة تهبُّ فيها. وأهمها: رياح الكوس، السيركو، السموم، الهبوب، الخماسين، وغيرها.

وبعض هذه الرياح يكون محملا بالأتربة وحـــارا ويســـبب أضـــرارا للمزروعات قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْـــدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ (١) . ففي هذه الآية يشير الله سبحانه إلى هذه الكوارث.

١) سورة الروم الآية (٥١) .

وبعض هذه الرياح يكون باردا فيحدث الصقيع الذي يضر بالنبات أيضا، وفي وصف الريح الباردة يقول تعالى: (كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [١] .

رابعاً: الرياح الموسمية:

سميت بهذا الاسم لأن الرياح تهب من المحيط خلال الصيف وينقلب هذا الاتجاه في الشتاء فتهب صوب المحيط، وأهم المناطق التي تهب عليها الرياح الموسمية: الأقاليم الواقعة في جنوب وشرق آسيا وشمال استراليا.

ففي فصل الصيف الشمالي تتركز منطقة الضغط الجوي المنخفض على وسط آسيا فتندفع إليها الرياح من المسطحات المائية المجاورة، وهذه الرياح تسبب سقوط الأمطار الغزيرة. أما في الشتاء فتخرج الرياح من قلب القارة الآسيوية ــ حيث تتركز منطقة الضغط المرتفع ــ إلى مناطق الضغط المنخفض نسبيا على المسطحات المائية المجاورة.

١) سورة آل عمران الآية (١١٧) .

خامسا: نسيم البر والبحر:

وهو صورة مصغرة من الرياح الموسمية وقد أطلق القران عليها (الريح الطيبة).

قال تعالى: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا) [١] . وقد سبق تفصيل نسيم البر والبحر سابقا.

نسيم الجبل والوادي:

في أثناء النهار يسخن الهواء الموجود في الوادي فيتمدد متصاعدا إلى القمم المجاورة ويسمى بنسيم الوادي، أما أثناء الليل فإن برودة الهواء على القمم وثقله تؤدي إلى انحداره إلى السفوح والوديان ويسمى بنسيم الجبل .

سادساً: الانخفاضات الجوية والأعاصير:

وهي عبارة عن كتل هوائية ذات ضغط منخفض. ويتدرج هذا الانخفاض من الخارج نحو الداخل، وتنشأ من التقاء كتلتين من الهواء إحداهما باردة والأخرى دافئة، فالانخفاضات الجوية تنشأ في نطاق الرياح الغربية بينما تتكون الأعاصير في نطاق الرياح التجارية الموسمية، ويجذب الانخفاض أو الإعصار الرياح بشدة فتدور ضد عقارب الساعة في نصف الكرة الشمالي ومع عقارب الساعة في نصف الكرة الجنوبي وتتسبب

١) سورة يونس الآية (٢٢) .

الانخفاضات الجوية والأعاصير في اضطرابات عنيفة في حالة الجـــو، فهـــي السبب في سقوط الأمطار الفجائية، وفي حدوث الراح المحلية كتلك الـــتي تحدث في دولة الإمارات .

من أشهر الأعاصير المدارية الهريكين في خليج المكسيك وهو أشد قوة أثرا من الانخفاضات الجوية وكثيرا ما تؤدي إلى تدمير المبـــاني والمنشـــآت وحودث ضحايا في الأنفس وإغراق السفن.

يقول الله سبحانه عن هذه الأعاصير: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَـــاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [(١)] . وقال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِـــلَ عَلَـــيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [(٢)]. [(٣)] .

وظائف الرياح:

للرياح وظائف عديدة أبرزها دورة المياة الطبيعية.

دورة المياة الطبيعية:

---

١) سورة يونس الآية (٢٢) .

٢) سورة الإسراء الآية (٩٦) .

٣) أنظر: الموسوعة العربية العالمية ٤٣٤/١١ ــ٤٣٨، والجغرافية الطبيعية والنبات، ص(٤٧ ــ٥٢)، لأحمد أبو النور وحافظ أمين وحسن مصطفى، مقرر الصف الأول الثانوي في دولة الإمارات، ط١٦ (١٤١٥هــ ــ ١٩٩٤م) . ومجلة الإعجاز العلمي، عدد (٥)، ص١٠ .

تقوم الأشعة الشمسية بتبخير الماء من المسطحات المائية، حيث يتصاعد بخار الماء إلى الغلاف الغازي، وينتقل إلى أماكن مختلفة بفعل التيارات الهوائية، ويتكاثف البخار المائي في الغلاف الغازي مكونا السحب التي تؤدي إلى سقوط الأمطار أو الثلوج على سطح الكرة الأرضية.

وبعد سقوط الأمطار يتبخر قسم منها ويعود إلى الغلاف الغازي أما القسم المتبقي من هذه المياه فإنها تتوزع على الشكل التالي:

- القسم الأكبر من المياه يتدفق على شكل مياه سطحية مكونا جداول صغيرة تتجمع في أ نهار وأودية تذهب إلى المياه السطحية لتتبخر من جديد وتعود إلى طبقات الجو مغلقة بذلك الدورة.

قسم قليل من المياه يتسرب في باطن الأرض مكونا المياه الجوفية.

ـ قسم من هذه المياه تستفيد منه الكائنات الحية وتعود إلى الدورة بعد تحلل المواد العضوية.

ـ يتم حجز بعض هذه المياه في الجليديات [1].

فنجد من خلال الدورة المائية أن وظائف الرياح تتمثل في:

١ـ نقل بخار الماء:

فالرياح تنقل بخار الماء المتصاعد من المسطحات المائية إلى اليابسة.

٢ـ أثر الرياح في تكوين السحاب:

---

١) انظر: المدخل إلى العلوم البيئية، للدكتور سامح غرايبة، ص (١٠٤ ـ ١٠٥)، دار الشروق ـ ١٩٩٨م .

قال تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) (١) .

بما سبق بيّنا أن السحاب يتكون من بخار الماء وهذا البخار يكون غير مرئي في الظروف العادية ولكن الرياح تظهره بوسيلتين هما:

١ـ حمله إلى مناطق التكثيف الباردة في الجو العلوي، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (٢) .

٢ـ تزويده أيضا بأنوية التكاثف كذرّات البخار والأيونات والتي تتكون في معظمها من مساحيق دقيقة تذوب في الماء أو تعمل على تجميع قطراته مثل ملح الطعام وكلوريد الكالسيوم وثاني أوكسيد الكبريت، وغير ذلك من الذرات المتطايرة من سطح الأرض والبحر مع تيارات الرياح فتتوافر بذلك نوى التكاثف في التروبوسفير، فتتكون قطرات المطر التي تتجمع في السحب التي تتصبح بذلك مرئية ظاهرة، وبهذا يتضح معنى العبارة القرآنية (فتثير سحابا).

٣ـ نقل السحاب وسوقه إلى حيث يشاء الله سبحانه إنزال المطر فيه: قال تعالى (وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ

---

١) سورة فاطر الآية (٩) .

٢) سورة الأعراف الآية (٥٧) .

لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[(١)] . وقال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ)[(٢)] . فالرياح تبشر بالمطر والرحمة.

وتؤكد الآية الكريمة التالية هذا الارتباط الوثيق بين الطاقة الشمسية الصادرة من ا لشمس ونزول المطر من السحب كما لاحظنا في الدورة المائية في الطبيعة علما بأن هذا الارتباط لم يكن معروفا وقت نزول القرآن الكريم. قال تعالى (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا)[(٣)] .

٤ـ تلقيح الرياح للسحب:

يكون بواسطة مدّها بنوى التكاثف وتلقيحها كهربائيا بالجمع بين نوعي الكهربائية الموجبة والسالبة وإحداث التفريغ الكهربائي، أي أن لفظ "لواقح" هنا يشير إلى تلاقح السحب كهربيا كما أثبت العلم الحديث وليس إلى التلقيح النباتي الذي اعتقده المفسرون الذين غفلوا عن النصف الثاني من الآية رغم أن الله قد رتب على إرسال الرياح لواقع إنزال الماء من السماء . قال تعالى: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)[(٤)] . وهذه الآية تؤكد أن ماء المطر لا

---

١) سورة البقرة الآية (١١٤) .

٢) سورة الروم الآية (٤٦) .

٣) سورة النبأ الآية (١٣، ١٤) .

٤) سورة الحجر الآية (٢٢) .

يمكن خزنه لأن مياه الأمطار سوف تتسرب حتما وبشتى الطرق لتصل إلى الجو ثانية لتحقيق استمرار دورة الماء في الطبيعة، فإذا تبخر جزء من مياه الأرض بحرارة الشمس، فإنه يعود إليها حتما من السماء على هيئة أمطار، بحيث تكون كمية المياه المتبخرة من سطح الأرض مساوية تماما لكمية المياه العائدة إليها من السماء وبذلك تظل كمية المياه على الأرض ثابتة. ويشير الله سبحانه إلى قضية رجوع بخار الماء على هيئة مطر في كتابه فقال: (وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ) [١] .

وقال تعالى (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) [٢]. [٣] .

وللرياح وظائف أخرى:

٥ــ نقل الطاقة:

تنقل الرياح كميات هائلة من فائض الطاقة في المناطق المدارية وتحمله على المناطق القطبية التي تشكوا من عجز كبير في الطاقة، ومعدل انتقال الطاقة بين المناطق المدارية والقطبية، يستمر في الزيادة حتى دائرة عرض ٣٥ شمالاً، إلا أنه يأخذ بعد ذلك في التناقص حيث يضيع جزء من

---

١) سورة الطارق الآية (١١) .

٢) سورة المؤمنون الآية (١٨) .

٣) انظر: الكون والإعجاز العلمي في القرآن، ص (٣٠٣ ــ ٣٠٥) .

الطاقة المنقولة في تسخين المناطق التي تهب عليها تلك الرياح والواقعة بعد خط عرض ٣٥ شمالاً [١].

٦ـــ تلقيح النبات:

فكثير من النباتات لا تلقّح إلا بواسطة الرياح، فالريـــاح تنقـــل حبوب اللقاح من أعضاء التذكير إلى أعضاء التأنيث في النبات لتتم عملية تلقيح النبات، ثم الإخصاب فتكون البذور والثمار.

٧ـــ استغلال الإنسان لطاقة حركة الرياح:

استغلها الإنسان في كثير من أعماله كتسيير السفن الشراعية. قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الـــرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ) [٢] .

واستغل الإنسان طاقة الرياح في إدارة الطواحين الهوائيـــة المســـتخدمة في توليد الكهرباء أو دفع الماء أو طحن الحبوب.

١) الجغرافية المناخية، للدكتور نعمان شحادة، ص ١٣٨، دار المستقبل ١٩٩٢م.

٢) سورة الشورى الآية (٣٣) .

الخاتمة

هذه جملة من الحقائق العلمية في الرياح لم يتوصل إليها العلم إلا بعد وجود الوسائل المتطورة في الأرصاد الجوية، فيا ترى من علم النبي الأمي هذه الحقائق الهائلة. إن كل عاقل منصف يقول: (أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) [١] .

وكلما تقدم العلم البشري، كلما تحققت جوانب من وعد الله عز وجل: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) [٢] .



(٤)

(لعلكم تتقون)

مجلة منار الإسلام العدد (٨) السنة ٢٧

هاتان الكلمتان تحددان هدفية الصوم، وبهما تتضح أهميته، وتتجلى غايته، وهذه الجملة القرآنية توجز البُعد التربوي لهذه العبادة السامية بأهدافها الاعتقادية، والأخلاقية، والاجتماعية، والاقتصادية على حد سواء.

---

١) سورة الفرقان الآية (٦) .

٢) سورة فصلت الآية (٥٣) .

تشكيل الإنسان:

إن القرآن الكريم يهدي إلى تشكيل شخصية الإنسان وفق رؤية عبادية تربوية تؤهله لامتلاك القدرة على تحقيق التفاعل الإيجابي من خلال منظومة المبادئ الإسلامية التي تبث وتؤكد وتحقق المعجزة القرآنية بالعمل البشري والفعل الإنساني، ضمن الإمكانات والطاقات المتعددة المتعددة التي أيقظها الوحي القرآني في الوعي الإنساني، حينما وضع أهم الأسس التربوية الحقيقية القادرة على تكوين وتعزيز الإرادات الخيِّرة، واكتشاف وصقل المواهب المتنوعة، وتنمية القدرات والاستعدادات، وتربية الميول والرغبات، والتزّود بالمهارات العلمية والعملية التي تهيئ المسلم للتعامل مع واقعه والارتقاء به إلى المثل الأعلى حتى يتخلص من اختلال التوازن، واختلاط المفاهيم، وانعدام التوافق، وانهدام جدار الأخوة الإيمانية الذي يشد بعضه بعضاً.

وإذا كانت الصلاة تحقق قدرا عظيما من استشعار جدلية الزمن، والإحساس بأهمية الطهارة نفسياً وجسدياً، والوعي بجماعية المشاركة، وحيوية التنظيم، وأخلاقية الهدف كونها "تنتهي عن الفحشاء والمنكر". فإن الصيام يعمل على تكوين وتشكيل القيم والمثل ذات الأساس العبادي، والهدف الاجتماعي، إضافة إلى تحقيق غايات سامية تنمو بتوازن منسجم، وتربو بتناسب متناغم حتى تغدو شعورا حركيا حيا يصبو إلى أن يكون سلوكات أخلاقياً، وأسلوبا تعامليا تكامليا مع الآخرين، يبدأ بالامتناع

الجماعي عن الطعام والشراب والشهوة لتكون هذه الماديات جسرا للعبور إلى مثاليات رائعة تُعلّم الصائم أن يمتنع عن الكذب والغيبة والنميمة والزور والصخب والشتم والنظرة المحرّمة، مع الشعور بجوع الجائعين لتعميق الرغبة الوجدانية في الإسهام بالتخفيف عنهم بالزكاة والصدقات لأن "من فطّر صائما كان له مثل أجره" (١) .

وبهذه الأحاسيس المتداخلة المشتركة يتوافق الوازع الديني، والواجب العبادي، مع الدافع الروحي والنفسي لتربية الإحساس الجماعي، وتزكية الغاية الأخلاقية، ولذلك قال الله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (٢) .

ما التقوى؟؟

(التقوى) مشتقة من قولك: وقاه الله وقياً ووقاية، بمعنى: صانه صيانة، ووقاه بمعنى: حماه.. والتوقية: الكلاءة والحفظ، واتقيت الشيء: حذرته، ورجل تقيّ ـــ ويجمع على أتقياء ـــ معناه: إنه موقّ نفسه من العذاب والمعاصي بالعمل الصالح؛ (٣). إذن توحي كلمة التقوى لمدلولات متعددة أهمها: الوقاية، والحفظ والحرص والحرز والحذر والانتباه واليقظة والشعور بالمسؤولية والخوف من العواقب لذلك يجعل المؤمن التقوى

---

١) كما رواه أحمد والترمذي وابن حبّان .

٢) سورة البقرة الآية (١٨٣) .

٣) راجع لسان العرب لابن منظور .

حاجزاً يحجز عنه الضرر، وحاجباً يحجب عنه الخطر، فيحرص على ما ينفعه، ويستعين بالله، ويتقي الله (حقّ تقاه).

وللشهيد سيد قطب ـــ رحمه الله ـــ رؤية عميقة ركّز فيها على العنصر الوجداني العاطفي لهذه الكلمة. فقال: "التقوى حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوقٌّ دائم لأشواك الطريق: طريق الحياة الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامح والمطامع، وأشواك المخاوف والهواجس" [١] .

ولّما كان القرآن الكريم، وسيظل (هدى للمتقين)، فقد قال سيد قطب أيضاً: "لابد لِمَن يريد أن يجد الهدى في القرآن الكريم، أن يجيء إليه بقلب سليم، بقلب خالص، ثم أن يجيء إليه بقلب يخشى ويتوقى، ويحذر أن يكون على ضلاله أو أن تستهويه ضلاله، وعندئذ يتفتح القرآن الكريم، عن أسراره وأنواره، ويسكبها في هذا القلب الذي جاء متقياً، خائفاً، حساساً، مهياً للتلقي" [٢] .

من صفات المتقين:

إنّ المتقين هم الذين جعلوا التقوى زاداً روحياً يحرّك دوافعهم إلى قيم الحب، ومثل الخير، وروائع الجمال (وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) [٣] .

---

١) في ظلال القرآن لسيد قطب ج١ ص٣٩، الطبعة ١٣ ـــ سنة ١٩٨٧، طبع دار الشروق في القاهرة .

٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

٣) سورة البقرة الآية (١٩٧) .

وهم الذين جعلوا التقوى شعارا ودثارا ولباسا وستارا (وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ) [١] . فكانت التقوى زادا يغذي الروح ولباساً يستر الجسد. قال الشاعر:

إذا المرءُ لم يلبس ثيابا من التقى
تجّد عرياناً ولو كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربّه
ولا خير في من كان لله عاصيا

وهؤلاء المتقون علموا يقينا أن الله: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) [٢] .

وأدركوا أنهم هم: (الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى) [٣] . فالتزموا بكلمة التقوى، وصبروا في الامتحان، وصدقوا مع الله، وصدعوا بالدعوة إلى الله، لأن بنيانهم الفكري والاعتقادي قد تأسس على: (تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ) [٤] . فعظموا شعائر الله، ودافعوا عن شرائع الله: (وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) [٥] .

---

١) سورة الأعراف الآية (٢٦) .
٢) سورة الفتح الآية (٢٦) .
٣) سورة الحجرات الآية (٣) .
٤) سورة التوبة الآية (١٠٩) .
٥) سورة الحج الآية (٣٢) .

ولنتأمل قول الله تعالى: (لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [١] .

إن هذه الآية ترسم معانٍ متكاملة يلتقي في خطوطها الغيبي بالواقعي، والفردي بالإجتماعي، والاعتقادي بالاقتصادي، والدنيوي بالأخروي، وتتضح صفات وسمات المتقين الذين يشعرون بعبء المسؤولية، ويتربّون على معنى احتساب الثواب لا اكتساب الشهرة وحبّ الظهور وادّعاء الفضل والوجاهة، ونجد قيمة البر ــ التي ينهض عليها أساس التنشئة الاجتماعية والبناء الحضاري للأمة ــ ذات أفق واسع بعيد يبدأ من تربية النفس المؤمنة الهادئة المطمئنة، وينتهي إلى سلوك حضاري راق يتمثل في أخلاق حسنة. فقد قال النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم: "البرّ حسن الخلق" [٢]. "البرُّ ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب" [٣] .

---

١) سورة البقرة (١٧٧) .

٢) رواه مسلم .

٣) رواه أحمد والدرامي .

لذلك فالبر ــ كما في الآية ــ صنو التقوى ورديفه (وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى) [١] . (وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى) [٢] . وقد جاء في الحديث النبوي الشريف: "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة" [٣] .

ونلاحظ أن ختام الآية القائل: (أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ). الترابط بين الصدق والتقوى كما في قوله تعالى: (اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ) [٤] . لكي يتعلم المسلمون بواسطة الصيام ــ صدق الحديث، وإتقان العمل، وإحسان التصرفات فيكونوا مع الله ويكون الله معهم: (إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) [٥] . حتى تتجسد شفافية التقوى في سلوك الإحسان قولا وعملا، ومن أجل ذلك كان خلوف فم الصائم: "أطيب عند الله من ريح المسك" كما روى البخاري ومسلم، ومن حديث النبي صلى الله عليه وسلم الطاهرين ــ لأنه فم لا يقول إلا صدقا، ولا يعد إلا حقا، ولا ينطلق إلا حُسنا، وذلك ما أكد عليه القران الكريم في قول الله تعالى: (اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ

---

١) سورة البقرة (١٨٩) .

٢) سورة المائدة (٢) .

٣) متفق عليه .

٤) سورة التوبة الآية (١٩) .

٥) سورة النحل الآية (١٢٨) .

لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) (١) .

كما أن الصوم الذي يعلمنا التقوى يدفعنا إلى العطاء بسخاء في الشدة والرخاء: (فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) (٢) . والصوم يعلمنا أن نتعامل مع المؤمنين بحب وود وصلاح ووفاء وولاء: (فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ) (٣) . (فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) كذلك يعلمنا الصوم صدق القول والوفاء بالعهد من خلال التقوى: (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (٤) . وبالصوم نتعود سلوك الصبر المقاوم الصامد، وليس الصبر المساوم الراقد: (إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (٥) .

وهكذا نرى أن المتقين ـــ كما صورهم القران الكريم ـــ محسنون أسخياء، مصلحون صادقون أوفياء، صابرون أقوياء، وكل هذه الأخلاقيات تثبت وتؤكد أن "البقاء للأصلح والعاقبة للتقوى، وليس

---

١) سورة الأحزاب الآية (٧٠ ، ٧١) .

٢) سورة الليل الآية (٥ ـــ٧) .

٣) سورة الأنفال الآية (١) .

٤) سورة آل عمران الآية (٧٦) .

٥) سورة يوسف الآية (٩٠) .

للأقوى إلا إذا كان الأصلح هو الأقوى، والأقوى هو الأتقى، وهذه حقائق وبصائر لم يدركها إلا ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين" [١] .

بركات التقوى:

لقد وصف الله القران الكريم، بأنه (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) [٢] . وذلك لأن "الهدى حقيقته، والهدى طبيعته، والهدى كيانه، والهدى ماهيته، ولكن لمن؟ لمن يكون ذلك الكتاب هدى ونورا؟ للمتقين، فالتقوى في القلب هي التي تؤهله للانتفاع بهذا الكتاب. وهي التي تفتح مغاليق القلب له، فيدخل ويؤدي دوره هناك، هي التي تهيئ لهذا القلب أن يلتقط وأن يتلقى وأن يستجيب" [٣] .

ولقد أمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالتقوى في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) [٤]. وفي ويقول تعالى لنسائه أمهات المؤمنين (وَاتَّقِينَ اللَّهَ) [٥] . بل كانت الدعوة إلى التقوى أول أمر يبلغه الأنبياء لأقوامهم [٦] . كما أنها وصية لله لكل الأمم: (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا

---

١) راجع مقدمة كتاب (الإعلان من منظور إسلامي) للدكتور عيساوي، العدد ٧١ ــ جمادي الأولى ــ ١٤٢٠هــ ــ السنة التاسعة عشرة، صادر عن وزارة الأوقاف في دولة قطر.

٢) سورة البقرة الآية (٢) .

٣) في ظلال القران ــ ج١ ــ ص٣٨ ــ ٣٩ .

٤) سورة الأحزاب الآية (١) .

٥) سورة الأحزاب الآية (٥٥) .

٦) راجع سورة الشعراء الآيات (١٠٦، ١٢٤، ١٤٢، ١٧٧، ١٦١) .

الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ) [١] .ولقد كان في رسوله الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ويتقي الله (حق تقاته) حتى قال عن نفسه صلى الله عليه وسلم: "والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله" [٢] ، ولم يكتف بذلك، بل كان يدعو الله دائما بقوله: (اللهم إني أسألك الهدى والتقى) [٣] . ويدعو قائلا: "اللهم آت نفسي تقواها وزكها فأنت خير من زكاها أن وليها ومولاها" [٤] . وأخبر عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال "تقوى الله وحسن الخلق" [٥] .

ولعل من أهم بركات التقوى أن التقي لا يكون تقيا إلا إذا اتبع كتاب الله تعالى، وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم وسيرة سلف الأمة الصالح مطالبا نفسه بالاهتداء بذلك كله" [٦] . وهذا ما يؤهله للترقي في مدارج السالكين المتقين، والتلقي عن رب العالمين، لأن من عمل بما يعلم أورثه الله علم ما لم يعلم ومصداق ذلك يكمن في قوله تعالى: (وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ) [٧] . وهذا العلم الوهبي الذي وهبه الله للمتقين قام على أساس العلم

١) سورة النساء الآية (١٣١).

٢) رواه مسلم .

٣) رواه مسلم وأحمد.

٤) رواه أحمد في مسند ٣٧١/٤، وابن أبي شيبة في (المصنف) ٢٨٦/١٠.

٥) الأدب المفرد للبخاري، ٣٩٣/١، ورواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

٦) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا، ج٤ ــ ص٣١٩ .

٧) سورة البقرة الآية (٢٨٢) .



الكسبي الذي اكتسى به المتقون نورا وبرهانا من الكتاب والسنة استطاعوا به التفريق بين الأشياء، والتمييز بين المواقف: (إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً) (١) .

وبعد بركة التعليم اللدني: (وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) (٢) . تتجلى بركة التكريم الإلهي لكل تقي عمل بما علم: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (٣) . ثم يرتفع المتقون إلى مقام المعيّة الإلهية، لأن من كان مع الله تعالى بتقواه كان الله سبحانه معه في أولاه وأخراه: (وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (٤) .

وهذه المعية الإلهية تقتضي الحفظ والكلاءة والعناية: "احفظ الله يحفظك" ـــ الحديث. وبالتالي لن يضر المتقين كيد الأعداء، ولا مؤامرات المستكبرين وبسبب صبرهم الصامد وتقواهم الثابتة: (وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا) (٥) . ولذلك يمنّ الله على عباده الأتقياء ببركة النجاة: (وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (٦) . وإذا أمورهم يسيرة

---

١) سورة الأنفال الآية (٢٩) .

٢) سورة الكهف الآية (٦٥) .

٣) سورة الحجرات الآية (١٣) .

٤) سورة البقرة الآية (١٩٤) .

٥) سورة آل عمران الآية (١٢٠) .

٦) سورة النمل الآية (٥٣) .

وأحوالهم سعيدة: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[١]. فيضمن الله تعالى لهم أرزاقهم إذ يحرصون على الرزق الحلال، ويتجنبون المال الحرام: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٢].

ومن أبرك بركات التقوى أن المتقين يدخلون دائرة الرحمة الإلهية الشاملة الكاملة، لأن الله تعالى، يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[٣].

ولعل منت القوانين والسنن الإلهية أن المتقين يتجنبون الأخطاء، ويتحاشون السقوط المستمر فيها، مما يكسبهم مناعة حضارية بعدم تكرار الأخطاء السابقة، ولذلك تنزل عليهم بركات عظيمة تكون التقوى سببا مباشرا لها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾[٤].

وأما بركات التقوى في الآخرة، فإن أهمها أن الأتقياء يتلقون البشارات البهيجة في الحال والمال: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[٥]. وأولياء الله هم كل تقي نقي، طيب القلب، طاهر

---

١) سورة الطلاق الآية (٤).

٢) سورة الطلاق الآية (٢، ٣).

٣) سورة الأعراف الآية (١٥٦).

٤) سورة الأعراف الآية (٩٦).

٥) سورة يونس الآية (٦٢ ــ ٦٤).

الضمير: (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)[١] . وإذا تولى الله تعلى عبدا من عباده كان "سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها". وهؤلاء (لا خوف عليهم ولاهم يحزنون) . لأن الله تعالى قد تولاهم: (إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ) [٢] . فأدناهم من قربه، وجعلهم من حزبه، وقربهم من أنسه، وأسبغ عليهم رضاه، فرفعهم إلى مقام المحبة: (فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) [٣] لأنهم كانوا يتقربون إليه حبا له، وخشية منه، وشوقا إليه، وتعلقا به: "وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه" [٤] .

فصارت النوافل ممارسة دائمة للطاعات، واستزادة للخيرات، وكفارة للسيئات، ومضاعفة للحسنات (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) [٥] . ولذلك صار هذا الأجر العظيم سببا للنجاة من عذاب الجحيم: (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا) [٦] . فتحصل للأتقياء النجاة الأبدية، والسعادة السرمدية، لأن النجاة من نار جهنم من أبرك بركات التقوى.

---

١) سورة الجاثية الآية (١٩) .

٢) سورة الأنفال الآية (٣٤) .

٣) سورة آل عمران الآية (٧٦) .

٤) رواه البخاري ١١/٩٢ .

٥) سورة الطلاق الآية (٥) .

٦) سورة مريم الآية (٧١، ٧٢) .

وحينما ينجو المتقون من عذاب النار يجمعون وفدهم إلى ربهم في دار القرار: (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا) (١) . (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا) (٢) . فيكرم وفادتهم إذ يُسبغ عليهم رحمته، ويوفيهم نعمته، ويقرّب إليهم جنته: (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ) (٣) . ليصحبوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأهل بيته وعترته الذينلا يبغضهم إلا شقيّ، ولا يحبهم إلا تقيّ، لأن "المرء مع من أحب" ولقد جاء في تفسير القرطبي "من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله تعالى يقول يوم القيامة: إني جعلت نسبا، فجعلت أكرمكم أتقاكم، وأبيتم إلا أن تقولوا: فلان بن فلان، وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون؟ أين المتقون؟" (٤) . فيأتي الجواب: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) (٥) . وإذا بأصوات الملائكة تتجاوب بهذه الآيات: (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ) (٦) .

---

١) سورة مريم الآية (٧٠) .

٢) سورة الزمر الآية (٧٣) .

٣) سورة ق الآية (٣١) .

٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ـ ج١٦ ـ ص٣٤٥ ـ٣٤٦ .

٥) سورة القمر الآية (٥٤) .

٦) سورة ص الآية (٤٩) .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) [١] . (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) [٢] . (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) [٣] . (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا) [٤] .

ثم ينصت الجميع إلى هذه الآيات: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ *يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [٥] .

إن الله كتب علينا الصيام كما كتبه على الأمم التي كان قبلنا من أجل أن تكون هذه العبادة "دورة" سنوية مدتها شهر رمضان الذي أنزل فيه القران الكريم، ليكون هاديا للناس، ومعلما للبشرية، لتعزيز المراقبة الذاتية، وتنمية الإخلاص، وتقوية اليقين، وتزكية الأخلاق، حتى تصير "التقوى" سلوكا عمليا، ومنهجا تعامليا لكل مسلم يجب أن يسلم المسلمون من لسانه ويده حتى يُسلم جهه لله، وهو محسن إلى نفسه ومجتمعه.



---

١) سورة الدخان الآية (٥١) .

٢) سورة الذاريات الآية (١٥) .

٣) سورة القلم الآية (٣٤) .

٤) سورة النبأ الآية (٣١) .

٥) سورة الدخان الآية (٥١ ــ ٥٧) .

(٥)

الغرائز والطبائع والميول في القرآن الكريم

مجلة منار الإسلام العدد ٣٤٠

ذكر القرآن الكريم الغرائز والطبائع والميول عند الإنسان فأحيانا يشير إليها صراحة، وأحيانا بالإشارة، وهذه هي بعض الأمثلة من كتاب الله تعالى الذي تحدى الدنيا بعطائه ومعجزاته:

١ــ غريزة الشهوات والميول الجنسية:

يقول عز وجل: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) [١] .

ويقول تعالى: (إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) [٢] . فالنفس تأمر بالقبائح والمعاصي لأنها أشد استلذاذا بالباطل والشهوات والميل إلى أنواع المنكرات.

---

١) سورة آل عمران الآية (١٤) .

٢) سورة يوسف الآية (٥٣) .

٢ـ غريزة حب الظهور والاستعلاء:

يقول الله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) [١] . وقال تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) [٢] .وقال تعالى: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) [٣] .

٣ـ غريزة الادخار والاقتناء:

يقول الله عز وجل: (وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا) [٤] . والمعنى: كـــان الإنسان ضيقا مبالغا في البخل، وقال تعالى: (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) [٥] . شديد الحرص على المـــال، وقال تعالى: (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) [٦] . وتحصرون على المال حرصا كثيرا. وقال تعالى: (وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ) [٧] . البخل مع الحرص.

---

١) سورة لقمان الآية (١٨) .

٢) سورة العلق الآية (٧،٨) .

٣) سورة لقمان الآية (١٨) .

٤) سورة الإسراء الآية (١٠٠) .

٥) سورة العاديات الآية (٨) .

٦) سورة الفجر الآية (١٠) .

٧) سورة النساء الآية (١٢٨) .

٤ــ حب التنافس والتفاخر:

(لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [١] . أخي المؤمن الناس يمدحونك لما يظنون فيك من الخير والصلاح اعتبارا بما يظهر من ستر الله عليك، فكن أنت ذاما لنفسك.

٥ــ غريزة الضعف البشري:

قال تعالى: (وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا) [٢] . عاجزا عن مخالفة هواه، حيث لا يصبر عن اتباع الشهوات. قال سعيد بن المسيب: ما أيس الشيطان من ابن آدم إلا أتاه من قبل النساء، وقد أتىعليّ ثمانون سنة وذهبت إحدى عيني وأنا أعشو الأخرى، وإن أخوف ما أخاف على نفسي فتنة النساء.

وفي الحديث الشريف: "شرّ ما أعطي ابن آدم شحّ هالع وجبن خالع" [٣] . فالهلع المحزن والخالع الذي يخلع قلبه.

٦ــ غريزة استعجال الخير والملذات:

قال تعالى: (وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً) [١] . يسارع إلى طلب ما يخطر بباله ولا ينظر إلى عاقبته. وقال تعالى: (خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ) [٢] .

---

١) سورة آل عمران الآية (١٨٨) .

٢) سورة النساء الآية (٢٨) .

٣) رواه البخاري في التاريخ .

العجلة طلب الشيء قبل أوانه. فجعل الله الإنسان لفرط استعجاله، وقلة صبره كأنه مخلوق منه. وقال تعالى: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ) [٣] . العاجلة أي الدنيا .

٨ ـ غريزة الخوف والغفلة:

قال تعالى: (إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) [٤] . شديد الكفران للنعمة أو ظلوم في الشدة يشكو ويجزع. وقال تعالى: (لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ) [٥] . القنوط: عبارة عن يأس مفرط يظهر أثره في الشخص فيتضاءل وينكسر. وقال تعالى: (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ) [٦] . شديد اليأس لقلة صبره وتسليمه لقضائه، ومعنى الكفران إنكار النعمة، وفيه إشارة إلى أن الترع إنما كان بسبب كفرانهم. قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) [٧] .

---

١) سورة الإسراء الآية (١١) .

٢) سورة الأنبياء الآية (٣٨) .

٣) سورة القيامة الآية (٢٠) .

٤) سورة إبراهيم الآية (٣٤) .

٥) سورة فصلت الآية (٤٩) .

٦) سورة هود الآية (٩) .

٧) سورة الحج الآية (١١) .



٩ ــ غريزة الإيمان بالله وإظهارها عند الشدايد:

قال تعالى: (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ) [١] .

فمن طبيعة الإنسان أنه إذا مسه الضر خشع وخضع وإلى ربع فزع وتملق بين يديه وتضرع .

قال تعالى: (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) [٢] . إذا أصابهم الجوع والقحط واحتباس المطر، وغير ذلك من أنواع البلاء.

وقال تعالى: (وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ) [٣] .

هذه هي الغرائز التي اكتشفها علماء النفس في القرن العشرين، وقد ذكرها القرآن الكريم في القرن السابع الميلادي، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عظمة القرآن، وأنه كلام رب العالمين [٤] .

---

١) سورة الزمر الآية (٨) .

٢) سورة الروم الآية (٣٣) .

٣) سورة لقمان الآية (٣٢) .

٤) من كتاب: تنوير الأذهان .

(٦)

العدد في القرآن الكريم والحديث الشريف

مجلة منار الإسلام العدد ٣٣٨

في القرآن الكريم ذكر للأعداد ومشتقاتها في مواضع كثيرة. وإن يتتبع هذه الأعداد في مواضعها يجد أنها قد وردت في مناسبات مختلفة ولأغراض متباينة. ومن هذه الأغراض ما يلي:

١) التشريع، أو بيانُ الحكم .

٢) التفريق والجمع .

٣) رفع التوهم .

٤) الفتنة أو الاختبار .

٥) المبالغة والتضعيف .

٦) البيان العلمي .

آيات العدد في القرآن الأعداد الصريحة:

الأعداد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي: واحد ــ اثنان ــ ثلاثة ــ أربعة ــ خمسة ــ ستة ــ سبعة ــ ثمانية ــ تسعة ــ عشرة ــ أحد عشر ــ اثنا عشر ــ تسعة عشر ــ عشرون ــ ثلاثون ــ أربعون ــ خمسون ــ ستون ــ سبعون ــ ثمانون ــ تسعة وتسعون ــ مائة ــ مائتان ــ ثلاثمائة ــ ألف ــ ألفان ــ ثلاثة آلاف ــ خمسة آلاف ــ خمسون ألفا

ـ مائة ألف . وفيما يلي نصوص هذه الأعداد "الأعداد الصريحة" التي أوردت بعض النماذج المختصرة منها حسب الترتيب المذكور:

الرقم (١): (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (١) .

الرقم (٢): (إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ) (٢) .

الرقم (٣): (فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ) (٣) .

الرقم (٤): (وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ) (٤) .

الرقم (٥): (وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ) (٥) .

الرقم (٦): (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ (٦).

الرقم (٧): (فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) (٧) .

الرقم (٨): (وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) (٨) .

الرقم (٩): (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ) (٩) .

الرقم (١٠): (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) (١٠) .

---

١) سورة الإخلاص الآية (١) .
٢) سورة التوبة الآية (٤٠) .
٣) سورة البقرة الآية (١٦٩) .
٤) سورة النور الآية (٤٥) .
٥) سورة الكهف الآية (٢٢) .
٦) سورة الأعراف الآية (٥٤) .
٧) سورة البقرة الآية (٢٩) .
٨) سورة الزمر الآية (٦) .
٩) سورة النمل الآية (٤٨) .
١٠) سورة الأنعام الآية (١٦٠) .

الرقم (١١): (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) [١] .

الرقم (١٢): (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا) [٢] .

الرقم (١٩): (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) [٣] .

الرقم (٢٠): (إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ) [٤] .

الرقم (٣٠): (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) [٥] .

الرقم (٤٠): (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) [٦] .

الرقم (٥٠): (فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) [٧] .

الرقم (٦٠): (فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا) [٨] .

الرقم (٧٠): (فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا) [٩] .

الرقم (٨٠): (فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً) [١٠] .

الرقم (٩٩): (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً) [١١] .

---

١) سورة يوسف الآية (٤) .

٢) سورة التوبة الآية (٣٦) .

٣) سورة المدثر الآية (٣٠) .

٤) سورة الأنفال الآية (٦٥) .

٥) سورة الأحقاف الآية (١٥) .

٦) سورة البقرة (٥١) .

٧) سورة العنكبوت الآية (١٤) .

٨) سورة المجادلة الآية (٤) .

٩) سورة الحاقة الآية (٣٢) .

١٠) سورة النور الآية (٤) .

١١) سورة ص الآية (٢٣) .

الرقم (١٠٠): (فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ) [١] .

الرقم (٢٠٠): (فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ) [٢] .

الرقم (٣٠٠): (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ) [٣] .

الرقم (١٠٠٠): (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) [٤] .

الرقم (٢٠٠٠): (وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ) [٥] .

الرقم (٣٠٠٠): (أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ) [٦] .

الرقم (٥٠٠٠): (يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ) [٧] .

الرقم (٥٠٠٠٠): (فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) [٨] .

الرقم (١٠٠٠٠٠): (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) [٩] .

---

١) سورة البقرة الآية (٢٥٩) .

٢) سورة الأنفال الآية (٦٦) .

٣) سورة الكهف الآية (٢٥) .

٤) سورة البقرة الآية (٩٦) .

٥) سورة الأنفال الآية (٦٦) .

٦) سورة آل عمران الآية (١٢٤) .

٧) سورة آل عمران الآية (١٢٥) .

٨) سورة المعارج الآية (٤) .

٩) سورة الصافات الآية (١٤٧) .

العدد في الحديث الشريف:

سوف أقصر البحث هنا على الجوانب العددية في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما سبق في القران الكريم؛ وذلك أن من الأحاديث الشريفة ما جاء للتشريع وبيان الحكم، مثل أحاديث التثليث في الوضوء، والتثنية في الصلاة وأحاديث التسبيع في التسبيح والتكبير والطواف والسعي، وكذلك أحاديث الأنصبة في المواريث وأحاديث الكفارات في الأيمان والحدود، وأحاديث العدد في الشهادات وأحكام القضاء، وغير ذلك من الأحاديث التي تضمنتها كتب السنة الصحيحة، وكان العدد فيها تشريعا أو تأكيدا أو رفعا لتوهم أو بيانا للكثرة والتضعيف ... ألخ.

نماذج من دلالة العدد في الحديث الشريف:

١) عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله قال: "أقرأني جبريل القرآن على حرف، فلم أزل أستزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف" [١].

قال الحافظ، ابن حجر: "ليس المراد بالسبعة "حقيقة العدد" بل المراد التسهيل والتيسير. كما ورد في بعض الروايات: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسَّر منه".

---

١) رواه البخاري .

ففي هذه الرواية تصريح ببيان "حكمة العدد" وهي التيسير على القارئ. قال ابن قتيبة: كان من تيسير الله أن أمر نبيه (عليه السلام) أن يقرأ كلٌّ قوم بلغتهم، فالأسدي يقرأ (تِعلمون) بكسر التاء. والتميمي يهمز، والقرشي لا يهمز. قال لو أراد كلُّ فريق منهم أن يزول عن لغته وما جرى عليه لسانه طفلا وناشئا وكهلا لشق عليه غاية المشقة، فيسَّر الله عليهم بمنِّه وفضله [١] .

٢) عن أم حبيبة — رضي الله عنها — زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحدّ على ميت فوق ثلاث، إلاّ على زوج أربعة أشهر وعشراً" [٢] .

فالتقيد بأربعة أشهر وعشر في الحديث "جرى على الغالب" لأن الحامل تحدّ إلى أن تضع حملها، وإن طالت مدة الحمل عن أربعة أشهر وعشر.



١) انظر صفوة صحيح البخاري (ج٣/ ص٦٠ —١٦٣)، حديث رقم (٤٢٧) .

٢) رواه البخاري — وقد جاء "تحدُّ" بحذف أن الناصبة: أنظر صفوة حديث البخاري — القسم الثاني من الجزء الأول — ص١٩ ، حديث رقم (١٧٩) .

(٧)

الأسرار البيانية في سورة القيامة

مجلة منار الإسلام العدد ٣٤٧

أولا ــ بين يدي السورة:

سورة (القيامة) مكية بلا خلاف، وآياتها أربعون، وهي تعالج موضوع البعث والجزاء، الذي هو أحد أركان الإيمان، وتركز بوجه خاص على القيامة وأهوالها والساعة وشدائدها وعلى حالة الإنسان عند الاحتضار وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب ولذلك سميت (سورة القيامة).

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بيوم القيامة، وبالنفس باللوامة، على أن البعث حق لا ريب فيه. ثم ذكرت طرفا من ذلك اليوم المهول الذي يتحير فيه البصر. ويخسف القمر، ويجمع الخلائق والبشر للحساب والجزاء. وتحدثت السورة عن اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بضبط القرآن الكريم، عند تلاوة جبريل (عليه السلام) ويحرك لسانه معه، ليسرع في حفظ ما يتلوه، فأمره الله تعالى أن يستمع للتلاوة، ولا يحرك لسانه به. وذكرت السورة انقسام الناس إلى فريقين: سعداء، وأشقياء. فالسعداء وجوههم مضيئة، تتلألأ بالأنوار، ينظرون إلى الرب جلّ وعلا، والأشقياء وجوههم مظلمة قاتمة يعلوها الذل والقترة.

ثم تحدثت السورة عن حال المرء وقت الاحتضار، حيث تكون الأهوال والشدائد، ويلقي الإنسان من الكرب والضيق ما لم يكن في الحسبان. وختمت السورة الكريمة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة والبراهين العقلية.

ثانيا ـــ الأسرار البيانية في السورة:

هذه السورة الكريمة، كغيرها من سور (القرآن الكريم)، حافلة بأسرار البيان المعجز الذي أعجز أرباب الفصاحة والبيان. وأول ما يطالعنا من هذه الأسرار البديعة:

١) سر دخول (لا) النافية على فعل (أقسم) في الآية الأولى والثانية: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) [١] .

(لا) هذه هي (لا) النافية، جيء بها قبل فعل (أقسم)؛ لنفي الحاجة إلى القسم؛ لأ، المقسم هو (الله) تعالى. والمقسم به هو (يوم القيامة والنفس اللوامة). أما المقسم عليه فهو (أن البعث حق لا ريب فيه). دلَّ عليه قوله تعالى في الآية الثالثة: (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ) [٢] . وتقديره: "لتبعثن" [٣] .

---

١) سورة القيامة الآية (١،٢) .

٢) سورة القيامة الآية (٣) .

٣) الجامع لأحكام القرآن، ج١٩، ص٩٣ ـــ دار الشعب ـــ القاهرة، ١٣٧٣ ـــ محمد بن فرج القرطبي.

والله تعالى ليس بحاجة إلى أن يقسم بشيء من مخلوقاته على إثبات ما هو حق، لا يتطرق الشك إليه، كالبعث وغيره. ولهذا أدخل (لا) على الفعل (أقسم)، في هذه السورة الكريمة، وفي غيرها من السور التي يكون فيها ضمير الفعل عائدا عليه سبحانه وتعالى. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) (١) .

فإذا تأملنا ذلك تبيّن لنا أنه يجوز القول إن (لا) زائدة للتأكيد لأن القول بالزيادة في القرآن الكريم عبث بكلام الله تعالى. وكلامه تعالى منزّه عن العبث والزيادة.. أما التأكيد فيأتي عن نفي الحاجة إلى القسم كما سيأتي بياته.

كذلك لا يجوز القول إنها لام الابتداء، أشبعت فتحتها، فتولدت منها ألف، فصارت (لا) لأن هذا الإشباع موضع إلباس بـــ(لا) النافية، ويقتضي أن يكون فعل القسم للمستقبل. وفعل القسم يجب أن يكون للحال ولهذا تكلف بعضهم فقدر دخولها على جلة من مبتدأ وخبر تقديره: (فلأنا أقسم)، ثم حذف المبتدأ.

أما القول إنها نافية لكلام تقدم ذكره، ثم استؤنف القسم بـــ(أقسم) فهو قول بعيد، لأنه يقتضي القراءة على وجوب الفصل بين

---

١) سورة الواقعة الآية (٧٥ ـــ ٧٧) .

(لا) و(أقسم)، وكل القراءات فيها على الوصل.. وقولهم: إن (لا) ــ هنا ــ كــ(لا) في قوله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [١].

ليس بشيء، لأن هذه مفصولة عما بعدها، وتلك موصولة، وأبعد من هذا القول قول من ذهب إلى أنها لنفي الفعل (أقسم)، على أن يكون إخبارا، لا إنشاء، على تقدير: أن المقسم به يستحق إعظاما فوق القسم [٢].

قالت الدكتورة بنت الشاطئ: "وفرق بعيد أقصى البعد بين أن تكون (لا) لنفي القسم ــ كما قال بعضهم ــ وبين أن تكون لنفي الحاجة إلى القسم؛ كما يهدي إليه البيان القرآني. ومن نفي الحاجة إلى القسم يأتي التأكيد والتقرير، لأنه يجعل المقام في غنى بالثقة واليقين عن الإقسام. والسر البياني لهذا الأسلوب يعتمد في قوة اللفت على ما يبدو بين النفي والقسم، من مفارقة مثيرة لأقصى الانتباه. وما زلنا بسليقتنا اللغوية نؤكد الثقة بنفي الحاجة معها إلى القسم.. فتقول لمن تثق فيه: لا تقسم. أو: من غير يمين، مقررا بذلك أنه موضع ثقتك، فلست بحاجة إلى أن

---

١) سورة النساء الآية (٦٥).

٢) جامع البيان، ج٢٩، ١٠٩ ــ دار الفكر ــ بيروت، ١٤٠٥ ــ محمد بن جرير الطبري.

يقسم لك، كما تقول لصاحبك: لا أوصيك بكذا، تأكديا للتوصية بنفي الحاجة إليها" [١] .

٢) سر نفي الفعل (نجمع) بـ(لن) وتخصيصه بـ(العظام) في الآية الثالثة: (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ) [٢] . الاستفهام في الآية الكريمة لإنكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه. و(لن) — في مذهب الخليل — أداة مركبة من (لا) النافية، و (أن) المصدرية، ولا يلزم ما اعترض عليه سيبوية من تقديم المفعول عليها، لأنه يجوز في المركبات ما لا يجوز في البسائط، ومن خواصها أنها تدل على نفي إمكان الفعل في المستقبل بعد أن كان محتملا للحال. وبيان ذلك: أنك إن قلت: (يسرني أن يقوم زيد خطيبا) دلت (أن) على إمكان القيام. فإن قلت: (لن يقوم) دلت (لن) على نفي إمكان القيام الذي دلت عليه (أن) .. فإذا ثبت ذلك فمعنى (لن) هو نفي الإمكان بـ(أن).. ومن خواصها — أنها تنفي ما قرب، ولا يمتد معنى النفي فها كامتداده في (لا) إذا قلت: (لا يقوم زيد)؛ لأن (لا) هي لام بعدها ألف، يمتد بها الصوت، ما لم يقطعه تضيق النفس؛ فآذن امتداد لفظها، بامتداد معناها، و(لن) بخلاف ذلك.

---

١) الإعجاز البياني القرآني، ص٢٥٩ — ٢٦٤، دار المعارف — مصر ١٩٧١، الدكتورة عائشة عبد الرحمن .

٢) سورة القيامة الآية (٣) .

تأمل ـــ بعد ذلك ـــ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ (١) . كيف نفي فعل الرؤية بـــ(لن)؛ لأنها تنفي إمكان الفعل، وأن النفي بها لا يتأبد، خلافا للمعتزلة بدليل قوله في صفة المؤمنين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٢) . فرؤيته تعالى ليست بمستحيلة؛ وإنما هي جائزة يوم القيامة، جاء فيها بـــ(لن) مقيدا بمدة الحياة الدنيا. ثم تأمل قوله: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ (٣) . كيف نفي فعل الإدراك ـــ بـــ(لا)؛ لأنها تنفي ما يستحيل وقوعه، والنفي بها أبدي يمتد إلى ما لا نهاية. فالله سبحانه لا يُدْرَك أبدا. وإن رآه المؤمنون يوم القيامة فأبصارهم لا تدركه. تعالى عن أن يحيط به مخلوق (٤) . ويتضح هذا المعنى إذا علمنا أن إدراك الشيء هو أن يحاط به من كل الجوانب. ولا يلزم من نفيه نفي الرؤية، لأنه أخص منها. تقول العرب: رأيت الشيء، وما أدركته.

وقولهم: إنّ (لن) لتأبيد النفي، وإنها تشعر باستحالة المنفي بها عقلا، مردود كثيرا بكثير من الآيات، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾ (٥) . وقوله تعالى: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ (٦) .

---

١) سورة الأعراف الآية (١٤٣) .

٢) سورة القيامة الآية (٢٢،٢٣) .

٣) سورة الأنعام الآية (١٠٣) .

٤) بدائع الفوائد، ج١، ص١٠١ ـــ مكتبة الباز ـــ مكة المكرمة، ١٩٩٦ ـــ محمد (ابن قيم الجوزية) .

٥) سورة التوبة الآية (٨٣) .

٦) سورة هود الآية (٣٦) .

ونحوهما ــ فهذه كلها جائزات عقلا، لولا أن الخبر منع من وقوعها . وليس في ذكر (الأبد) ما يناقض ذلك، فقد يكون (أبدا) بعد فعل الحال [١] . والدليل على بطلان مذهبهم قوله تعالى في صفة اليهود: (وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا) [٢] .

مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة، بدليل قوله تعالى على لسانهم (يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) [٣] . فهذا تمنٍّ للموت، فلو اقتضت (لن) دوام النفي تناقض الكلام.

أما نحو قوله تعالى: (لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) [٤] . فجاء النفي فيه بــ(لن) لظن المشركين أن الآلهة التي يعبدونها قادرة على (الخلق). قال الشيخ السهيلي: "إن العرب تنفي بــ (لن) ما كان ممكنا عند المخاطب، مظنونا أن سيكون، فتقول له: لن يكون، لما يمكن أن يكون؛ لأن (لن) فيها معنى (أن). وإذا كان الأمر عندهم على لاشك، لا على الظن، كأنه يقول: أيكون أم لا يكون؟ قلت في النفي: لا يكون" [٥] .فإذا ثبت ما

---

١) حاشية الكشاف ــ ج٢، ص١١٤ ــ دار الفكر ــ أحمد بن المنير .

٢) سورة البقرة الآية (٩٥) .

٣) سورة الزخرف الآية (٧٧) .

٤) سورة الحج الآية (٧٣) .

٥) نتائج الفكر في النحو، ص١٣٠ ــ ١٣١ ــ الشيخ السهيلي .

ذكرنا أدركنا سر الجمع، بين (أن) و (لن) في قـــوله تعالى: (أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ) [١] . ولو قيل: (أن لا نجمع عظامه). دل ذلك على خلاف المراد.

أما السرّ الآخر؛ وهو تخصيص (الجمع) بالعظام فقال البغوي فيه: "ذكر العظام، وأراد النفس، لأن العظام هي قالب النفس، لا يستوي الخلق إلا باستوائها" [٢] . وقال ابن قيم الجوزية: " والذي أحصاه المشرّحون من العظام في البدن مائتان وثمانية وأربعون عظاما، سوى الصغار والسمسميات التي أحكمت بها مفاصل الأصابع والتي أحكمت بها مفاصل الأصابع والتي في الحنجرة .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم. أن الإنسان خلق من ثلاثمائة وستين مفصلا، فإن كانت المفاصل هي العظام فقد اعترف جالينوس وغيره بأن في البدن عظاما صغارا لم تدخل تحت ضبطهم وإحصائهم، وإن كان المراد بالمفاصل المواضع التي تنفصل بها الأعضاء بعضها عن بعض ـــ كما في الجوهري وغيره ـــ فتلك أعمّ من العظام. فتأمله" [٣] . فسبحان (مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) [٤] .

---

١) سورة القيامة الآية (٣) .

٢) معالم التنزيل، ج٤، ص٤٢١ ـــ دار المعرفة ـــ بيروت،١٩٨٧ ـــ الحسين بن مسعود البغوي .

٣) التبيان في أقسام القرآن ـــ ج١، ص٢٥٠ ـــ دار الفكر ـــ محمد (ابن قيم الجوزية) .

٤) سورة يس الآية (٧٨) .

٣ ـ سر اختيار لفظ (البنان) وتخصيصه بـ (التسوية) في الآية: (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ) [١].

أي: نسوي أصابعه، وأطرافها. قال الألوسي: "وفي القاموس ـ البنان: الأصابع وأطرافها. فالمعنى: نجمع العظام قادرين على تأليف جمعها، وإعادتها إلى التركيب الأول وإلى أن نسوي أصابعه التي هي أطرافه وآخر ما يتم به خلقه. أو: على أن نسوي، ونضم سلامياته على صغرها، ولطافتها بعضها إلى بعض، كما كانت أولا، من غير نقصان، ولا تفاوت؛ فكيف بكبار العظام، وما ليس في الأطراف منها؟ والوجه الأول، من المعنى يدل على تصوير الجمع، وأنه لا تفاوت بين الإعادة والبدء، في الاشتمال على جميع الأجزاء التي كان بها قوام البدن، أو كماله.. والثاني، يدل على تحقيق الجمع التام؛ ولعله الأوفق بالمقام، ويعلم منهما نكتة تخصيص البنان بالذكر وفي الحال المذكور ـ أعني قادرين، بعد الدلالة على التقييد ـ تأكيد لمعنى الفعل، لأن الجمع من الأفعال التي لا بد فيها من القدرة، البالغة فقد أكّد" [٢] .

وقال الرزقاني: "أرجو أن تقف قليلا عند تخصيص (البنان) بالتسوية، في هذا المقام، ثم تستمع بعد ذلك إلى هذا العلم والوليد (علم تحقيق الشخصية) في عصرنا الأخير، وهو يقرّر: أن أدق شيء وأبدعه، في بناء

---

١) سورة القيامة الآية (٤) .

٢) روح المعاني ـ ج١٩، ص١٣٨ ـ إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ محمود الألوسي .

جسم الإنسان، وهو (تسوية البنان) حتى أنه لا يمكن أن تجد بنانا لأحد، يشبه بنان آخر بحال من الأحوال. وقد انتهوا من هذا القرار، إلى أن حكموا (البنان) في كثير من القضايا والحوادث. (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [١]) [٢]. وكذلك فإنه لا ظهور على العدو إلا به (وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) [٣] . أي الأصابع أو أطرافها؛ لأجل الهم بها يقاتلون .

٤ـــ سر التكرار في السورة:

ومن الأسرار المعجزة في هذه السورة الكريمة، ما جاء فيها من تكرار في الآيتين: الأولى والثانية وفي الآيتين: الثامنة والتاسعة. وفي الآيتين: الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين.

أما الآية الأولى والثانية فهما قوله تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) [٤] .

وفي هذا التكرار ثلاثة أقوال: أولها: إن الله تعالى أقسم بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة. الثاني: إنه لم يقسم بهما. والثالثة: إنه أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة [٥] .

---

١) سورة المؤمنون الآية (١٤) .

٢) مناهل العرفان ـــ ج١، ص٢٠ ـــ دار الفكر ـــ بيروت، ١٩٦٦ ـــ محمد عبد العظيم الزرقاني .

٣) سورة الأنفال الآية (٢١) .

٤) سورة القيامة الآية (١،٢) .

٥) أسرار التكرار ـــ ج١، ص٢١١ ـــ دار الاعتصام ـــ القاهرة، ١٢٩٦ ـــ محمود بن نصر الكرماني .

وقد سبق أن ذكرنا أن (لا) ـــ هنا ـــ إنما جيء بها قبل الفعل (أقسم)، لنفي الحاجة إلى القسم، ولم يؤت بها لغرض آخر. وهذا هو سرّ البيان فيها. وأما تكرارها مع الفعل (أقسم) ففيه سر آخر من أسرار البيان.

وبيان ذلك: أنه لو قيل: "لا أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة" احتمل ذلك معنيين: أحدهما. نفي الحاجة إلى القسم بهما مجتمعين . والثاني: نفي الحاجة إلى القسم بأحدهما دون الآخر. أما قوله تعالى: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) [١] ، فيدل على نفي الحاجة إلى القسم بهما مجتمعين ومفترقين .

وأما الثامنة والتاسعة فهما قوله تعالى: (وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) [٢] .

كرّر لفظ (القمر) لأنه تعالى أخبر عنه بغير الخبر الأول. فخسف القمر غير جمعه مع الشمس. وخسفه معناه: ذهب ضوؤه، وأظلم. قال أبو حاتم محمد بن إدريس: "إذا ذهب بعضه فهو كسوف وإذا ذهب كله فهو الخسوف" [٣] . والمراد من جمع الشمس والقمر: أن الله تعالى يجمع بينهما يوم القيامة، ويلقيهما في النار، ليكونا عذابا على الكفار. وقيل: يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران في النار. وفي قراءة ابن مسعود

---

١) سورة القيامة الآية (١،٢) .

٢) سورة القيامة الآية (٨،٩) .

٣) الجامع لأحكام القرآن ـــ ج١٩، ص٩٦ .

(وجمع بين الشمس والقمر) [٣] . وقال ابن قيّم الجوزية: "و لم يجتمعان قبل ذلك، بل يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعد ما فرقها البلى ومزقها" [١] .

وغلب المذكر على المؤنث لاجتماعهما . ولو قلت: (طلع الشمس والقمر) لقبح؛ كما يقبح (قام هند وزيد)، إلا أن تريد الواو الجامعة، لا العاطفة. وأما في الآية فلا بد أن تكون الواو جامعة. ولفظ (نجمع) يقتضي ذلك، وعليه يكون (القمر) معمولا لفعل مقدر في معنى الفعل الأول، وقد أغنى عن إعادته، وناب منابه حرف العطف، وهذا من الأسرار البديعة التي لا تراعى إلا في البيان الأعلى [٢] .

وأما الآيتان الرابعة والثلاثون والخامسة والثلاثون فهما قوله تعالى: (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) [٣] .

كرر (أولى) أربع مرات في هاتين الآيتين الكريمتين، للمبالغة في التهديد والوعيد. كأنه يقول: إني أكرر عليك التحذير والتخويف، فاحذر، وانتبه لنفسك قبل نزول العقوبة بك. وفي (زاد المسير): "قال ابن قتيبة: هو تهديد ووعيد. وقال الزجّاج: العرب تقول: أولى لفلان، إذا دعت عليه

١) التبيان في أقسام القرآن، ج١، ص٩٣ .

٢) بدائع الفوائد ـــ ٢٢/١ .

٣) سورة القيامة الآية (٣٥،٣٤) .

بالمكروه، ومعناه: وليك المكروه يا أبا جهل" [١] . وقال الكرماني: "فإن قوله: أولى ـــ تام في الذمّ بدليل قوله: (فَأَوْلَى لَهُمْ) [٢] . فإن جمهور المفسرين ذهبوا إلى أنه التهديد . وإنما كررها، لأن المعنى: أولى لك الموت، فأولى لك العذاب في القبر، ثم أولى لك أهوال يوم القيامة، وأولى لك عذاب النار ـــ نعوذ بالله من شرها" [٣] .

٥ ـــ سر التقديم والتأخير في السورة:

ومن الأسرار البيانية في هذه السورة الكريمة، ما جاء فيها من تقديم الخبر على المبتدأ، أو على ما أصله المبتداء. ومن تقديم شبه الجملة على عاملها.

أما تقديم الخبر على المبتدأ أو ما أصله المبتدأ فنلاحظه في الآيات الآتية:

١ـــ (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) [٤] .

٢ـــ (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) [٥] .

٣ـــ (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) [٦] .

٤ـــ (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) [١] .

---

١) زاد المسير ـــ ج٨، ص٤١٥ ـــ المكتب الإسلامي ـــ بيروت، ٤٠٤ ـــ عبد الرحمن الجوزي .

٢) سورة محمد الآية (٢٠) .

٣) أسرار التكرار ـــ ج١، ص٢١٢ .

٤) سورة القيامة الآية (١٢) .

٥) سورة القيامة الآية (٣٠) .

٦) سورة القيامة الآية (١٧) .

ففي الآية الأولى قدَّم الخبر (إِلَى رَبِّكَ) على المبتدأ (الْمُسْتَقَرُّ)، ليدل على معنى الاختصاص. أي: أن مستقر العباد يوم القيامة إلى ربهم خاصة، لا إلى غيره. قال الزمخشري: "أي: استقرارهم. يعني: إنهم لا يقدرون أن يستقروا إلى غيره، وينصبوا إليه. أو: إلى حكمه ترجع أمور العباد، لا يحكم فيها غيره، كقوله: (لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) [٢] . أو : إلى ربك مستقرهم. أي: موضع قرارهم، من جنة، أو نار" [٣] . ومثل ذلك يقال في تقديم الخبر (إِلَى رَبِّكَ) على المبتدأ (الْمَسَاقُ) في الآية الثانية.

وكذلك قدّم الخبر (عَلَيْنَا) على ما أصله المبتدأ (جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) في الآية الثالثة، و(بَيَانَهُ) في الآية الرابعة للغرض نفسه. أي: أن على الله تعالى وحده، لا على غيره، جمع القرآن الكريم في صدرك وإثبات قراءته في لسانك، وأن عليه تعالى وحده بيانه.

أما لفظ (قرآن) ـــ هنا ـــ فهو مصدر (قرأ)، جيء به بدلا من (قراءة) ليدل على المبالغة في القراءة. هذا هو أصله، ثم أ"طلق على الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فصار علما عليه.. ومثله في دلالته على المبالغة: (فرقان) و (غفران) و (شكران) و (كفران) .

١ـــ (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) [٤] .

---

١) سورة القيامة الآية (١٩) .

٢) سورة غافر الآية (١٦) .

٣) الكشاف ج٤، ص١٩١ .

٤) سورة القيامة الآية (١٢) .

٢ــ (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) [١] .

٣ــ (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ) [٢] .

٤ــ (بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) [٣] .

قدم الظرف (يَوْمَئِذٍ) في هذه الآيات، على (الْمُسْتَقَرُّ) و (الْمَسَاقُ) و(نَّاضِرَةٌ) و (بَاسِرَةٌ)؛ فأفاد معنى الاختصاص ــ أيضا. ومثله في ذلك تقديم الجار والمجرور (إِلَى رَبِّهَا)، على (نَّاضِرَةٌ) وتقديم الجار والمجرور (عَلَى نَفْسِهِ)، على (بَصِيرَةٌ) .

وفي قوله تعالى: (إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) [٤] . قال الزمخشري: "تنظر إلى ربها خاصة، لا تنظر إلى غيره. وهذا معنى تقديم ا لمفعول"، واستطرد الزمخشري قائلا: "ألا ترى إلى قوله: ((إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) و (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) و (إلى الله تصير الأمور) و (عليه توكلت وإليه أنيب) . كيف دلّ فيها التقديم على معنى الاختصاص؟ " [٥] .

قال البيضاوي: "وجوه يومئذ ناضرة بهيّة متهللة إلى ربها ناظرة، تراها مستغرقة في مطالعة جماله، بحيث تغفل عمّا سواه، ولذلك قدّم المفعول" [٦]

---

١) سورة القيامة الآية (٣٠) .

٢) سورة القيامة الآية (٢٤،٢٣،٢٢) .

٣) سورة القيامة الآية (١٤) .

٤) سورة القيامة الآية (٢٣) .

٥) الكشاف، ج٤، ص١٩١.

٦) تفسير البيضاوي ــ ج٥، ص٤٢٢ ــ دار الفكر ــ بيروت،١٩٩٦ ــ البيضاوي .

. ومصطلح (المفعول) يطلق على الظرف والجار والمجرور، كما يطلق على الظرف والجار والمجرور، كما يطلق على المفعول به.

٦ـ سر دخول الواو على (لو) الشرطية في الآية الخامسة والثلاثين.

(بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) [1] . أي: الإنسان حجة بينه على نفسه يوم القيامة وشاهد عليها وحده بما جنت، واقترفت من الموبقات؛ لأن جوارحه تنطق بذلك (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [2] .

والتاء في قوله: (بصيرة) للمبالغة، كـ (رواية) و (علامة) . وقوله تعالى: (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) [3] . يريد به: إنه لو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه، يجادل عنها فلن ينفعه ذلك.

وأكثر النحاة والمفسرين على القول بأن (الواو) الداخلة على (لو) هي (واو) الحال. وذهب بعضهم إلى القول إنها (زائدة). ويتفق الجميع على أن (لو) ـ هنا ـ بمعنى (إن) الشرطية، ومن قواعد النحاة: أن (إن) الشرطية؛ إذا وقعت بعد واو الحال تعرب (وصلية). أي: زائدة. وكل ذلك تكلف، وتعسف، لأنه يخل بمعنى الكلام ونظمه.

---

١) سورة القيامة الآية (١٥،١٤) .

٢) سورة النور الآية (٢٤) .

٣) سورة القيامة الآية (١٥) .

ولعل الصواب في ذلك أن نقول: إن قوله تعالى: (بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) [١] .كملة تامة مستقلة بنفسها، وهي جملة خبرية.

أما قوله تعالى: ((وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) [٢] فهو عبارة شرطية، جعلت شرطا للجملة الأولى، وقيداً لها وهذه العبارة الشرطية، إما أن تكون مشتملة على (الواو)؛ كقولنا: (يُعطي السائل، لو كان فقيرا). أو تكون مجردة من الواو، كقولنا: (يُعطى السائل، ولو كان غنيا) فالإعطاء الأول يكون مشروط بكون السائل فقير وليس كذلك الإعطاء ا لثاني. والفرق بينهما: أ، الأول يجري بوحود الشرط؛ لأن كون ا لسائل فقيراً يناسب أن يعطى، وأن الإعطاء الثاني يجري رغم وجود الشرط، لأن كون السائل غنيا لا يناسب أن يعطى. ولهذا يسمى الشرك الأول: (إيجابيا)، ويسمى الشرط الثاني: (سلبيا) [٣] .

ولكون الثاني سلبيا أدخلت عليه (الواو)، لتحصن المعنى، ولتقوم بوظيفة الربط بين الجملة الخبرية، والعبارة الشرطية، ويؤتى بمثل هذا الرابط ــ عادة ــ عندما لا يوجد انسجام مباشر بين العبارتين؛ فصار معنى التركيب: يعطي السائل رغم كونه غنيا. أما على القول بأن (الواو) حالية فيكون المعنى: يعطي حال كونه غنيا. ولا يخفى ما بين هذين المعنيين من

---

١) سورة القيامة الآية (١٤) .

٢) سورة القيامة الآية (١٥) .

٣) الجملة الشرطية ٣٥٧ ــ ٣٥٨ــ مطابع الدجوي ــ عابدين: ١٩٨١ ــ أبو أوس إبراهيم الشمسان .

فرق في بيان المعنى ا لمراد. وأما على ا لقول بزيادة (الواو) فيفسد المعنى تماما؛ لأنه يجعل الغنى شرطا في الإعطاء. ولهذا لا يجوز إسقاط هذه الواو من الكلام. ولو كانت زائدة لما اطرد مجيئها في البيان القرآني. وعليه يكون معنى الآية الكريمة: الإنسان يشهد على نفسه، رغم مجيئه بكل معذرة، ولذلك ينبغي أن يطلق على هذه الواو مصطلح: (واو الرغم) أو (رغمية) بدلا من قولهم: (حالية) أو: (زائدة) [١] . هذا عن معناها، أ/ا عن إعرابها فتعرب: رابطة. و (لو) بعدها شرطية.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان إخوة يوسف (عليه السلام): (وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) [٢] .أي: وما أنت بمؤمن لنا رغم كوننا صادقين. وقوله تعالى: (وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ) [٣] . أي: الأمة المؤمنة خير من الحرة المشركة رغم إعجابكم بها.

ومثل هذه الواو في دخولها على(لو) (الواو) الداخلة على (إن) الشرطية؛ نحو قولنا: (أكرم زيداً، وإن أساء إليك) . أي: أكرمه رغم إساءته.وإلى هذا ذهب الشيخ السهيلي، فقال: "من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنى، وإن سرق" ولو لم يكن في الكلام الواو لكان الزنى شرطا في دخول الجنة، ولكن الواو حصنت المعنى" [٤] .

---

١) الجملة الشرطية ٣٥٧ ــ ٣٥٨ .

٢) سورة يوسف الآية (١٧) .

٣) سورة البقرة الآية (٢٢١) .

٤) أمالي السهيلي ــ الشيخ السهيلي .

فتأمل هذه الأسرار البديعة التي لا تراعى إلا في البيان الأعلى .

٧ ـــ سر دخول الباء على الخبر بعد (ليس) في قوله تعالى: (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى) [١].

لما ذكر الله تعالى في أول السورة الكريمة، إمكان البعث والنشور، ذكر في آخرها الأدلة على ذلك، فقال سبحانه: (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) [٢] .

ثم ختم السورة الكريمة بقوله: (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى) [٣] .

قال ابن قيم الجوزية: "احتج سبحانه على أنه لا يترك الإنسان مهملا معطلا عن الأمر والنهي والثواب والعقاب، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك، فإن من نقله من نطفة مني إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم خلقه، وشق سمعه وبصره، وركّب فيه الحواس والقوى والعظام والمنافع والأعصاب والرباطات التي هي أسرُه، وأتقن تخلقه، وأحكمه غاية الإحكام، وأخرجه

---

١) سورة القيامة الآية (٤٠) .

٢) سورة القيامة الآية (٣٦ ـــ ٣٩) .

٣) سورة القيامة الآية (٤٠) .

على هذا الشكل والصورة التي هي أتم الصور وأحسن الأشكال، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية؟ [١] .

وجمهور النحاة والمفسرين على القول أ، همزة الاستفهام إذا دخلت على النفي، كما في الآية السابقة، أفادت معنى التحقيق، والتقرير، وأن (الباء) الداخلة على الخبر (قادر): زائدة ويمكن الاستغناء عنها، وإنما جيء بها تأكيدا للنفي [٢] . وعليه يكون قوله تعالى: (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ) . وقولهم في تأويله: أليس ذلك قادرا، سواء في المعنى.

وفي الحقيقة أن الهمزة الداخلة على النفي لا تفيد معنى التقرير، في الجمل المنفية، إلا بدخول الباء على الخبر، أو ما يقوم مقامه. وبعبارة أخرى: التقرير لا يستفاد منه بدخول الهمزة على النفي، وإنما يستفاد منه بدخول الباء على الخبر الواقع في سياق هذا النفي، ويزول معنى التقرير بزوال هذه الباء. وهذا هو سر الإعجاز في هذه الباء. فقوله تعالى: (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى) [٣] . إثبات لقدرة الله تعالى على إحياء الموتى، وتقرير للمنكرين لها والجاحدين بها. أما قولهم في تأويل الآية: "أليس ذلك قادرا على إحياء الموتى" بإسقاط الباء، ونصب الخبر، فيتحمل أن يكون نفيا، وأن يكون إثباتا مرادا به التنبيه، أو التذكير، أو التوبيخ.

---

١) الصواعق المرسلة ــ ج٢، ص٤٨٠ ــ دار العاصمة ــ الرياض، ١٩٩٦ ــ محمد (ابن قيم الجوزية) .

٢) البحر المحيط ــ ج٨، ص٣٩١ ــ أبو حيان الأندلسي .

٣) سورة القيامة الآية (٤٠) .

وإلى نحو هذا ذهبت الدكتورة بنت الشاطئ. ونصُّ قولها في ذلك: "وقد نلحظ في آيات قرآنية أن الباء تقترن بخبر المنفي بليس، فلا تؤكد النفي، بل تنقضه، وترده تقريرا، وإلزاما، كمثل قوله تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) [١] . ثم قالت، بعد أن ذكرت عددا من الآيات القرآنية التي جاء فيها الخبر بعد (أليس) مقترنا بالباء: "النفي في هذه الآيات جميعا قد انتقض، وخرج إلى تقرير باتٍّ، وإثبات حاسم، فهل جاء معنى التقرير في هذه الآيات، من خروج الاستفهام عن معناه الأصلي. على ما قرره علماء البلاغة؟

معروف أن الاستفهام قد يخرج إلى هذا الوجه من التقرير، كما قد يخرج إلى وجوه أخرى، كالاسترحام والضراعة أو النفي والزجر والوعيد، أو التوقع والانتظار. وهذه الآيات خاصة بالاستفهام عن كل منفي بليس، وقد انتقض النفي فيها جميعا، وخرج إلى التقرير، لا إلى وجه آخر من الوجوه التي يعرفها البلاغيون.

ومن حيث أطرد اقتران الخبر فيها بالباء، تعيّن أن يكون لهذه الباء أثرها في تحديد الدلالة البيانية. فلو قلنا مثلاً: ألست غافلا عما حولك؟ أليس الصبح قريبا؟ احتمل الاستفهام أن يكون على معناه الأصلي من طلب الفهم، وأن يخرج إلى التوبيخ، أو التنبيه أو السخرية والتهكم، أو

---

١) سورة الزمر الآية (٣٦) .

التوقع والانتظار. ولا شيء من هذه المعاني مما تحتمله آيات الاستفهام المقترن خبرُ ليس فيها بالباء، وإنما هي للتقرير والإثبات، لا لمعنى آخر. وهذا هو سر الباء التي قالوا: إنها زائدة على الخبر لمعنى التأكيد" [١] .

الخاتمة:

وبعد، ينفد القول، وما تنفد كلمات ربي.. وإذ أكتفي بهذا القدر مما ذكرت من هذه الأسرار المبهرة في هذه السورة الكريمة، أرجو ألا يظن أنني قد أتيت على كل ما فيها من أسرار. فلا يزال فيها كثير مما أجهله، وقليل مما أزعم أنني أعلمه. فلما يعلم أسرار كلمات ربك إلا هو، سبحانه وتعالى أن يحيط بهذه الأسرار مخلوق من مخلوقاته.

فتبارك من أودع كلامه هذه الأسرار التي هي أجلّ، وأعظم من أن تدركها العقول. وما ظهر لنا منها بالنسبة إلى ما خفي يسير. ولا يسعني في نهاية المطاف إلا أن أقول: اللهم اجعلنا من الذين يفقهون كلامك، ويدركون أسرار بيانك، لك الحمد كله على أن خلقت الإنسان وعلمته البيان، ولك الحمد كحله على ما أنعمت به علينا، وتفضلت، من نعمة الفهم والإدراك. وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليما كثيرا.



١) الاعجاز البياني للقرآن ١٧٠ ــ ١٧٦.

(٨)

العرض الفني للقصة القرآنية

مجلة منار الإسلام العدد ٣٦١

دراسة تحليلية لمقطع من قصة موسى (عليه السلام) في سورتي "البقرة" و"الأعراف" .

من المقرر أن لكل سورة قرآنية شخصيتها ومعالمها وخصائصها وملامحها. وكما أن لكل شخصية ملامح عامة تميزها عن غيرها، فإن قارئ القران الكريم ـ مع كثرة التلاوة وطول التدبر ـ تتبين له ملامح كل سورة ومعالمها وجوّها العام الذي يلقى بظلاله عليها، وهذا ما يفسر لنا بعض تنوع الأسلوب القرآني في معالجة الموضوع الواحد، حيث نجد أن الأسلوب يتنوع والعرض يختلف من سورة إلى أخرى على الرغم من اتحاد الموضوع أو القصة المعروضة.

وقصة موسى (عليه السلام) مع بني إسرائيل تكرر عرضها في القران الكريم كثيرا. والذي يعنينا في إطار دراسة الجوانب الفنية للآيات المتشابهة في هذا الموضع هو أن نقارن بين العرضين الفنيين لقصة موسى (عليه السلام) مع بني إسرائيل في سورتي "البقرة" و "الأعراف" .

والمقطعان القرآنيان هما: (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ



ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (١)

وقوله تعالى (وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ) (٢).

عند التأمل في المقطعين السابقين تتضح فروق عديدة تجعل منهما لوحتين فنيتين متقابلتين لموضوع واحد.

وقبل الخوض في توجيه هذه الفروق الدقيقة يحسن بنا أن نذكر كلمة موجزة عن الجو العام للسورتين. وكما هو واضح وجلي من خلال تتبع

---

١) سورة البقرة الآية (٥٨ ــ ٦٠).

٢) سورة الأعراف (١٥٩ ــ ١٦٢).

آيات سورة البقرة المتعلقة ببني إسرائيل، استهلها بقوله تعالى: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)[١] .

ثم واصل السّياق القرآني معدِّدا نعم الباري ــ جل وعلا ــ عليهم وإنزال المن والسلوى وتفجير الماء.. إلى غير ذلك من النعم السابغة التي أفاضها عليهم. إذن فهي سورة جوها العام تعداد النعم وذكر تفضلات المنعم الوهاب عليهم.

لكن إذا تأملنا جوَّ سورة الأعراف فإننا نجده جوا مفعما بالنقم، مشحونا بالتَّقريع والتوبيخ لبني إسرائيل، جزاء نكالهم وغدرهم ومعاصيهم وجرائمهم، يشهد لذلك آيات عديدة نكتفي بقوله تعالى: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) [٢] .

وقوله تعالى (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) [٣] .

---

١) سورة البقرة الآية (٤٠) .

٢) سورة الأعراف الآية (١٠٣) .

٣) سورة الأعراف الآية (١٣٨) .

إذا اتضح الفرق بين جو السورتين فلا جرم أن يتنوع اسلوب العـــرض في المقطعين على الرغم من اتحاد القصة.

وإليك أخي القارئ تفصيلا لذلك: (وإذ قلنا ادخلوا) وأسند فعل القول إلى ذاته العليّة، وقال في سورة الأعراف: (اسكنوا) وعطـــف في البقـــرة الأكل على الدخول بالفاء (فكلوا) وعطف الأكل على السّكنى بالواو في الأعراف (وكلوا).

وأمرهم في البقرة بالدخول إلى القرية ساجدين ثم بأن يقولـــوا حطـــة (وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة) بينما طلب منـــهم في الأعـــراف أن يقولوا حطة ثم أن يدخلوا الباب سجدا.

وخصّص في سورة الأعراف الذين ظلموا بأنهم من بني إسرائيل فقـــال (منهم) بينما عمم الحديث في سورة البقرة وأسقط كلمة (منهم) .

وعبّر عن إلحاق العذاب بهم في سورة البقرة بالإنزال (فأنزلنا)، وعبّـــر عنه في سورة الأعراف بالإرسال (فأرسلنا).

وذكر سبب إنزال العذاب بهم في البقرة بأنهم كانوا يفسقون، وذكـــر في الأعراف بأنهم كانوا يظلمون.

ولّما استسقى موس لقومه في البقرة أمره تعالى بـــأن يضـــرب بعصـــاه الحجر، وعبر عن مجيء الماء بالإنفجار، بينما ذكر في الأعراف بأن قـــوم موسى هم الذين استسقوه فأوحى إليه أن يضرب بعصاه الحجر وعبر عن مجيء الماء بالانبجاس .

وقال في تهنئتهم في سورة البقرة (كلوا واشربوا من رزق الله) ولم يذكر الشراب في سورة الأعراف.

وعند التأمل والتدبر نجد أن الجو العام هو الذي يتحكم في طريقة العرض، ولأن سورة البقرة عددت نعم الله على بني إسرائيل واستعرضت المنح الجليلة التي اصطفاهم وحباهم الله بها، جاء عرض قصة موسى مع قومه فيها مناسبا متسقاً مع معاني الإكرام والتفضّل والإنعام، وجاءت الألفاظ والأساليب تعكس هذه المعاني والدّلالات.

ولما كانت سورة الأعراف سورة تعداد لجرائم بني إسرائيل ومعاصيهم ونزلت تقرِّعهم وتوبخهم بما صدر منهم جاء عرض القصة متسقا متناسبا مع هذا الجو المشحون بالتقريع والانتقام.

من هنا اختلف العرضان، وتنوعت الألفاظ وتباينت الأساليب. وتوجيها لذلك أقول: إن من عادة الأسلوب القرآني أن يسند الفعل إلى الله سبحانه وتعالى،في مقام تعداد النعم والخير العام، على حين ينبني الفعل للمجهول إذا كان السياق متعلقا بالسوء والشر والتوبيخ والانتقام، وفي ذلك يقول الدكتور فاضل السامرائي: "والقران الكريم يسند الفعل إلى الله سبحانه وتعالى، في مقام التشريف والتكريم مقام الخير العام والتفضل

بخلاف الشرِّ والسوء فإنه لا يذكر فيه نفسه تنزيها له عن فعل الشر وإرادة السوء"[١].

نلمح ذلك جليا مع فعل الإنعام حيث نجد الفاعل وهو الله تبارك وتعالى مذكورا دائما في مثل قوله تعالى: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ)[٢]. وقوله تعالى: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ)[٣]. وقوله تعالى: (قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا)[٤].

لكننا نجد الأسلوب القرآني يضمر الفاعل ـــ تنزيها له سبحانه وتعالى ـــ عندما يتعلق الأمر بالسوء والشر: (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)[٥].

نلمح ذلك أيضا في فعل التزيين: في مقام الخير العام للمعلوم من مثل قوله تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)[٦]. وقوله تعالى: (وَلَقَدْ زَيَّنَّا

---

١) التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي ص ٣١٣ .

٢) سورة الفاتحة الآية (٧) .

٣) سورة الأحزاب الآية (٣٨) .

٤) سورة النساء الآية (٧٢) .

٥) سورة الجن الآية (١٠) .

٦) سورة الحجرات الآية (٧) .

السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) [١] .

إلا أننا نجد السياق القرآني في مقام السوء والشر يبني الفعل للمجهول من مثل: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) [٢] . وقوله تعالى: (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ) [٣] . وقوله تعالى: (زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ) [٤] .

والمعنى نفسه نلحظه عند حديث القران الكريم عن أهل الكتاب، فإذا كان الأمر متعلقا بالخير العام وذكروا في سياق المدح والثناء عليه أو ذكرت بعض أعمالهم الصالحة فإن المولى تعالى يشرفهم ويسند فعل الإيتاء إلى ذاته العلية من مثل قوله تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ) [٥] . وقوله تعالى: (الَّذِينَ

---

١) سورة الملك الآية (٥) .

٢) سورة آل عمران الآية (١٤) .

٣) سورة البقرة الآية (٢١٢) .

٤) سورة التوبة الآية (٣٧) .

٥) سورة ا لبقرة (١٢١) .

آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ) [١] . وقوله تعالى: (أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) [٢] .

أما إذا كان الأمر متعلقا بذكر شرورهم ومعاصيهم وتعداد جرائمهم يبني السياق القرآني فعل الإيتاء للمجهول من مثل قوله تعالى: (نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ) [٣].

وقوله تعالى: (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) [٤] .

إذا استقرت هذه القاعدة القرآنية المطردة في أذهاننا فإنا نقول: لما كان سياق سورة البقرة متعلقا بذكر نعم الله وتفضله على بني إسرائيل، فإن المولى تعالى أسند فعل القول فيها إلى ذاته العلية المعبّر عنها بناء الفاعلين التي تفيد العظمة: (وإذ قلنا) بينما سياق الأعراف يتمحور حول التوبيخ والتقريع والانتقام وذكر شرور بني إسرائيل فناسبه بناء الفعل للمجهول (وإذا قيل لهم).

وللمزيد إكرام بني إسرائيل في البقرة عطف الأكل على الدخول الفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب، توضيحا لذلك أقول: إذا

---

١) سورة البقرة الآية (١٤٦) .

٢) سورة الأنعام الآية (٨٩) .

٣) سورة البقرة الآية (١٠١) .

٤) سورة آل عمران (١٩) .

أردت أن تبالغ في الحفاوة بإنسان أو صديق سارعت إلى إكرام نزله كأن تقول: ادخل البيت فكل.

وبما أن سياق الأعراف ركّز على توبيخهم وتقريعهم فأمرهم بالسكنى لا بالدخول، وواضح أن ا السكنى لا تكون إلا بعد الدخول والاستقرار، و لم يعقب فعل الأكل بعدها بالفاء بل عطفه بالواو التي تفيد مطلق العطف من دون تحديد للزمنت حيث قال: (وكلوا).

ولمزيد إكرامهم والحفاوة بشأنهم ذكر السياق في سورة البقرة كلمة (رغدا) أي كلوا منها حيث شئتم أكلا رغدا طيبا هنيئا مريئا. واكتفى في الأعراف بأمرهم بالأكل من حيث شاؤوا وأسقط كلمة (رغدا) وذلك لمناسبة الجو العام للسورة. وفي ذلك يقول ابن عادل الدمشقي نقلا عن الإمام الرازي: "لما أسند الفعل لنفسه لا جرم ذكر معه الإنعام الأعظم وهو أن يأكلوا رغدا، وفي الأعراف لما لم يسند الفعل إلى نفسه لا جرم لم يذكر الإنعام الأعظم" [١].

ولأن مقام سورة البقرة مقام تكريم وتشريف أمرهم المولى تعالى بأن يدخلوا الباب سجدا ثم بأن يتضرعوا بين يديه قائلين اللهم حُط عنا ذنوبنا، وإذا ما أقمنا مفاضلة بين الحالتين: حالة الدخول سجدا

١) اللباب في علوم الكتاب ج٢/ ص١٠٤ .

وحالة التضرع بحط الذنوب، وجدنا أن حالة السجود أشرف وأكرم أستنادا إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد" . لذا كان هذا المقام هو الأليق بأن يقدّم في سياق سورة البقرة.

ولما كان سياق الأعراف على ما ذكرنا من تعداد جرائمهم وذكر معاصيهم ناسبة أن يخاطبوا بأن يتضرعوا إلى الله تعالى ليحط عنهم ذنوبهم أولا ثم بعد ذلك يستحقون أن يدخلوا الباب سجدا.

والتوجيه عينه ينطبق على تنويع الجموع، حيث قال في البقرة: (نغفر لكم خطاياكم) وجمع كلمة خطيئة جمع تكسير الذي يدل بناؤه على الكثرة، وقال في الأعراف: (نغفر لكم خطيئاتكم) حيث جمع خطيئة على خطيئات وهو جمع مؤنث سالم يفيد بأصل وضعه اللغوي القلة. وبيان ذلك أنه ـــ جل وعلا ـــ استعمل الجمع المفيد للكثرة حيث كان المقام مقام ذكر إفضاله وإنعامه على بني إسرائيل، واستعمل الجمع المفيد للقلة في مقام التأنيب والتوبيخ، فهم لا يستحقون أن تغفر خطاياهم الكثيرة بل كثير في حقهم أن تغفر خطيئاتهم القليلة.

وفي ذلك يقول الخطيب الإسكافي: "استعمل لفظ الكثير في الموضع الذي جعل الأخبار فيه عن نفسه بقوله (وإذ قلنا ادخلوا) وشرط لمن قام بهذه الطاعة ما يشرطه الكريم إذا وعد من مغفرة

الخطايا كلها، وقرن إلى الأخبار عن نفسه ـ جل ذكره ـ ما يليق بجوده وكرمه، وأتى باللفظ الموضوع للشمول فيصير كالتوكيد بالعموم، كما لو قال: نغفر لكم خطاياكم كلها أجمع، ولما لم يسند الفعل في سورة الأعراف إلى نفسه عزّ اسمه وإنما قال: (وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية) فلم يسم الفاعل أتى بلفظ الخطيئات" (١) .

ثم عطف زيادة الأجر والمثوبة للمحسنين بالواو المفيدة للتنويع (٢) . حيث قال في البقرة (وسنزيد المحسنين) لكن أسقط هذه الواو في الأعراف لمناسبة جوها العام الذي سبق أن أشرنا إليه .

وذكر في سورة البقرة الذين ظلموا وبدّلوا قولا غير الذي قيل لهم بصيغة العموم ولم يحدد أنهم منهم زيادة في تكريمهم ومراعاة لمشاعرهم، إلا أنه صرّح في سياق الأعراف بأن الذين ظلموا هم منهم زيادة في توبيخهم وتقريعهم. هذا علاوة على أن سورة الأعراف ذكر المولى تعالى فيها قبل أن هناك طائفة من قوم موسى مهتدون ومنصفون، حيث قال تعالى: (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فلما بعّضَ الهادين بعّضَ الظالمين أيضا مراعاة للتناسب والتوافق في السياق القرآني .

---

١) درّة التنزيل وغرّة التأويل، ص٩ .

٢) أنظر التعبير القرآني، ص ٣٢٠.

وتماشيا مع جو التكريم وتعداد النعم ذكر السياق القرآني سبب إنزال العذاب عليهم بأنهم كانوا يفسقون، وذكر إلحاق العذاب بهم بلفظ الإنزال الذي هو أخفُّ من الإرسال. بينما ذكر سياق سورة الأعراف السبب بأنهم كانوا يظلمون، وشتّان بين الظلم والفسق، وبالتالي فاختبار لفظ الإرسال هو الأنسب والأليق بالمقام لأن الإرسال أشدُّ من الإنزال.

ولما كان سياق البقرة أشرف وأكرم ذكر المولى تعالى بأن الذي استسقى هو موسى (عليه السلام) حيث أمره ـــ جل وعلا ـــ بأن يضرب بعصاه الحجر، وأجاب الحجر بالانفجار، على حين ذكر سياق الأعراف أن الذين استسقوا هم قومه من بني إسرائيل فأوحى إليه المولى تعالى بأن يضرب بعصاه الحجر وأجاب الحجر بالانبجاس، وشتّان بين الأمر بالضرب والوحي بالضرب، وشتان ثم شتان بين الانفجار والانبجاس.

فالانبجاس انصباب الماء بقلة وهو ينساب أن يجاب به بنوا إسرائيل، والانفجار القوي هو أنسب لفظ يجيب به المنعم الكريم استسقاء صفيِّه وكليمه موسى (عليه السلام).

ولا يقال أن هناك تناقضا بين استسقاء موسى واستسقاء بني إسرائيل. وإجابة عن هذا التساؤل أقول: اشتد العطش والقحط ببني إسرائيل فطلبوا من موسى (عليه السلام) أن يستسقي لهم، فأجابهم

موسى لذلك وطلب السقيا من الله تعالى. فبالنظر إلى أصحاب الطلب الأول فبنوا إسرائيل هم الذين ألحوا في الاستسقاء، وبالنظر إلى جهة التنفيذ فموسى هو الذي استغاث ربه وطلب لهم السقيا. وبهذا فالقران صادق في عرضه في المقطعين، إلا أنه استعمل في كل سياق ما يناسبه.

أضف إلى ذلك أن الانفجار يناسبه الأكل والشراب فقال في البقرة: (كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ) لكن لا نجد ذكر للشراب مع الانبجاس.

فانظر إلى التناسب العظيم والتناسق الجليل بين سياق كل سورة وطريقة عرض القصة فيها. وهل يبقى بعد هذا التوضيح لفن تصريف القول في القران الكريم مقال لقائل أو قدح لقادح أو حجة لمفتر ممن يدّعون أن في القرآن تكراراً أو تناقضاً!!

هذا، وليس لقائل أن يقول إن هذا التوجيه هو النهاية في هذا الباب، بل هناك من قال إن الماء انفجر مع موسى (عليه السلام) ثم قلّ بسبب معاصيهم وجرائمهم، وهناك من وجّه توجيهات أخرى مختلفة يجدُها الباحث في مظانها [1] . وهذا بعض سرّ القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنفدُ غرائبه .

---

١) انظر ملاك التريل، ص٩ ، وروح المعاني ١/ص٣٦٢ ـــ٣٦٣.

(٩)

المغايرة الإعرابية وأثرها الدلالي في السياق القرآني

إن الأنماط اللغوية المتعددة للآيات القرانية ، وفقا للقراءات، أو للرسم العثماني، ذات قيمة تعبيرية تحفل بالعديد من المظاهر التأثيرية التي يتغياها النص القرآني الشريف. وقد استفرغ علماء اللغة والبلاغيون جهودهم سنين طوالا في تتبع مظاهر تأثير هذا الأسلوب الفريد. فلم يبلغوا من ذلك إلا قدر ما أتاحته لهم القدرة الإلهية. ليبقى للقران الكريم عطاؤه المتجدد للأمة المسلمة ــ وغيرها ــ في كل زمان ومكان.

وظهارة المغايرة الإعرابية التي ستعنى بها السطور المقبلة شغلت أذهان المفسرين واللغويين قديما وحديثا في محاولات مستمرة للوقوف على روعة الأسلوب القرآني واستبطان ما فيه من أسرار وكنوز تعبيرية غالية.

والمقصود في هذه السطور بـ"المغايرة الإعرابية" مخالفة إعراب كلمة ما لما تواضع عليه النحاة واللغويون من قواعد نحوية أو صرفية، وسوف نحاول أن نلتمس أسرار هذه المخالفة التي نؤكد هنا أنها ما جاءت على هذا النحو إلا لإثراء الأسلوب، وبث قيم دلالية جديدة فيه. وهذا ما عنيت به المدارس اللغوية الحديثة لا سيما مدرسة تشومسكي التي اهتمت كثيرا بهذه الظاهرة وأطلقت عليها اسم "التحويلات اللغوية" أو "الأسلوبية".

النموذج الأول:

قال تعالى في وصف الكافرين : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ) (١)

الضمير الجمعي في كلمتين (نورهم — تركهم) وكذلك الواو الجماعية في كلمة (يُبْصِرُونَ) تتعلق جميعا بكلمة (الذي) في أول الآية. فهنا حدثت مغايرة إعرابية إذ عاد ضمير الجماعة على المفرد. فما سر هذه المغايرة؟ وهل أضافت قيمة دلالية فيما لو سار السياق كله على المفرد فقيل — مثلا — (ذهب الله بنوره وتركه في ظلمات لا يبصر)؟

إن أقوال العلماء السابقين في تفسير هذه المغايرة تدور — في معظمها — حول قضية (الحمل على المعنى) أي أن معنى الآية متعلق بالكافرين فجاء اللفظ بصيغة الجمع حملا للفظ على معناه المقصود.

غير أن هذه الرؤية وإن كانت صحيحة، لا تشفي الغليل. فاللغة العربية تسمح أساسا بأن يعامل المفرد معاملة الجمع، كما في قول الشاعر القديم:

وإن "الذي" حانت بفلج ماؤهم

هم القوم كل القوم يا أمَّ خالد

---

١) سورة البقرة الآية (١٧) .

وقد ورد هذا في القران الكريم، في مواضع شتى منها قوله تعالى: (أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ) [١] وما حوت العربية هذه الخصيصة إلاّ لعلّة بيانية هي ما نسعى إلى تلمسه في هذه الآية الكريمة التي أتت بعد عدة آيات تحدثت عن الكافرين ومُكابرتهم وإصرارهم على الاستهزاء بدعوة الرسل. فشبّه الله تعالى موقفهم في هذه العنجهية والمكابرة بموقف الذي ذهب مع أصحابه يرود لهم الطريق فأشغل نارا يستضيء — هو وقومه — بنورها فأتت ريح أطفأت نارهم فتخبطوا في الظلام حائرين عاجزين مذهولين .

من هنا، كان للمغايرة الإعرابية — من إعادة ضمير الجماعة على المفرد (اسم الموصول) قيمة دلالية جديدة إذ أوحى السياق — بهذه البنية اللغوية — بأن ما يتذرّع به الكفار من حجج إن هو إلا وهم باطل، وأنه لا فارق بين كفر وكفر، فزعيمهم الذي يستوقد لهم النار سيناله ما ينالهم من حيرة واضطراب وعجز وذهول حين يكتشف — معهم — أن لا أمل لهم في نجاة، فالظلمات تحيط بهم جميعا من كل مكان. وفي إعادة الضمير الجمعيَ على المفرد إيذان بتحمل هذا المفرد مسؤولية إضلال قومه وكشف له أمامهم وبيان ما هو عليه من ضعف وذل. وفوق هذا كله فقد بدأت الآية بالجمع (مثلهم ..)، وانتهت بالجمع (يبصرون) وراوحت في ثناياها

---

١) سورة النور الآية (١٣) .

بين الإفراد والجمع ــ مع الحفاظ على مستوى الزمن ــ مما أكسب التعبير حيوية وتجددا في عطائه الدلالي للسامع والقارئ.

النموذج الثاني:

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) [١] .

وردت كلمة (الصابئون) في هذه الآية مرفوعة، وظاهر السياق يدل على أنها معطوفة على المنصوبات اللواتي سبقنها لأن (الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ) في محل نصب (إن) التي في صدر الآية. وجميع القراءات السبع تجعل كلمة (الصابئون) مرفوعة كما هي عليه في رسم المصحف.لذلك اجتهد النحاة والمفسرون في إيجاد تفسير لهذه المغايرة الإعرابية، التي تستوقف القارئ والسامع للكتاب الكريم.

وقد وردت كلمة (الصابئون) منصوبة في سياقين آخرين في كتاب الله الكريم. ففي سورة البقرة (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) [٢] .

---

١) سورة المائدة الآية (٦٩) .

٢) سورة البقرة الآية (٦٢) .

وفي سورة الحج (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [١] . فإذا أردنا أن ندرك سر رفع (الصابئون) وهي في موضع العطف على ا سم إن في الآية التي بين أيدينا، فلننظر في السياقين الآخرين اللذين وردت فيهما تلك الكلمة منصوبة. لنلاحظ أنها في آية المائدة ــ التي نحن بصددها ــ ارتفعت بالواو وهي متقدمة على كلمة (النصارى) لأن الصابئين أقدم وجودا من النصارى. وقد شملت الآية أربع طوائف منها أهل كتب سماوية. والصابئة ليسوا بأهل كتاب بل كانوا يعبدون الكواكب والنجوم. فجاء رفع الكلمة ليظهر اختلاف هذه الطائفة عن الطوائف الثلاث. وجاء تقديمها عى النصارى مراعاة لكون الصائبة أقدم عهدا من النصارى.

ويرى بعض الباحثين أن من الممكن تفسير هذه المخالفة الإعرابية "بأن الصابئين يتوب الله تعالى على من آمن منهم. وهو دفع موضع التوهم [أي نفي فكرة عدم التوبة]، بأن الله لا يتوب على أحد منهم لأنهم عبدوا النجوم و لم يُعهد من أمرهم أنهم كانوا يتأولون.." [٢] .

وذهب بعض القدامى مثل الخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ) مذهبا فريدا في تأويل هذه الآية خلاصته أنه ليس من المستساغ أن يُقال: (إن الذين

---

١) سورة الحج الآية (١٧) .

٢) د. فاخر هاشم الياسري، "المغايرة الإعرابية وأثرها في المخالفة الأسلوبية" مقال منشور في مجلة (دراسات إسلامية) العدد العاشر، السنة الثالثة ــ ٢٠٠٢م ــ بغداد دار الحكمة. ص١٠.

آمنوا.. من آمن بالله) فإذا كانوا قد وُصفوا بأهم آمنوا في صدر الآية فلا وجه لإعادة الصفة، بل المعنى: إن الذين آمنوا بكتب الله المقدسة المتقدمة مثل: صحف إبراهيم، والذين آمنوا بما نطقت به التوراة وهم اليهود، والذين آمنوا بما أتى به الإنجيل وهم النصارى" . قال: "ثم أتى بذكر (الصابئون) وهم الذين لا يبتون على دين وينتقلون من ملة إلى ملة، ولا كتاب لهم"(١) .

فخلاصة رأيه أن آية البقرة جاءت على ترتيب الكتب السماوية، والمقصود فيها ـ عنده ـ بالذين آمنوا: الذين آمنوا بصحف إبراهيم (عليه السلام). وأما آية المائدة ـ التي نحن بصددها ـ فجاءت على ترتيب الأزمنة قال: "فرفع (الصابئون) ونوي به التأخير عن مكانه، كأنه قال بعد ما أتى بخبر الذين آمنوا والذين هادوا وهو (من آمن..) والصابئون هذا حالهم أيضا. وهذا مذهب سيبويه".

النموذج الثالث:

قال تعالى: (وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا). (٢) . هذه هي قراءة حفص عن عاصم التي عليها رسم المصحف بضم الهاء من كلمة (عليه) وهو الموضع الوحيد في القرآن الذي ورد بهذا الضبط وما

---

١) الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل ـ بيروت دار الآفاق الجديدة ـ ط٣، ١٩٧٩، ص٢١.

٢) سورة الفتح الآية (١٠) .

عداه لا يرد إلا بكسر الهاء إذا سبقها حرف الجر (على) . وهذه (أي الضم) لغة أهل الحجاز، وبقية العرب يكسرون الهاء.

يقول العلماء إن الضمّة ثقيلة النطق لأن " النطق بها يحتاج إلى جهد عضلي أكثر من الكسرة والفتحة، وذلك لأنها لا تُنطق إلا بإنضمام الشفتين وإرتفاعهما ولا تحتاج الكسرة ولا الفتحة إلى ذلك"(١). وقد وردت هذه اللفظة في سياق آية تحدثت عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوم الحديبية وكانت بيعتهم بيعة على الموت في سبيل نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

لذلك جاءت الهاء مضمونة في هذه الكلمة، في هذا الموضوع فقط، لكي يظهر منت مخالفتها المألوف من الإعراب مدى ثقل العهد الذي تضمنته تلك البيعة العظيمة التي نسبها الله تعالى إلى نفسه وجعل يده فوق أيدي المؤمنين إذ قال جلّ شأنه: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) (٢) .

ثم أن الضمة ـــ كما يقول الدكتور فاضل السامرائي ناقلا عن الألوسي ـــ ينطق بعدها لفظة الجلالة مفخما بخلاف الكسرة، فإنها يُنطق

---

١) د. فاضل صالح السامرائي ـــ بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ـــ عمّان: دار عمار،١٩٩٩م ـــ ص١١٥ .نقلا عن: المحتسب لابن جني ١٨/٢ ـــ ١٩ وغيره.

٢) سورة الفتح الآية (١٠) .

بعدها لفظ الجلالة بترقيق اللام. فجاء بالضم ليتضخم النطق بلفظ الجلالة، إشارة إلى تفخيم العهد، فناسب بين تفخيم العهد. فناسب بين تفخيم العهد وتفخيم الصوت[1].

النموذج الرابع :

قال تعالى على لسان سيدنا يوسف (عليه السلام) وهو يقص رؤياه على أبيه يعقوب عليه السلام: (يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) [2] . والمعروف في قواعد اللغة أن الجمع بالياء والنون والواو والنون إنما يكون للعقلاء. والمرئيات التي رآها يوسف (عليه السلام) من الكواكب والشمس ليست من ذوي العقول بل هي جمادات.

قال العلماء قد يكون عبَّر عن لسان الحال بالكلام، قد يطلق الكلام على لسان الحال كما قال الشاعر القديم :

شكا إليّ جَملي طول السُّرى

وكما قال الشاعر نصيب :

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهلُه

ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

---

١) المرجع السابق، ص١١٦.

٢) سورة يوسف الآية (٤) .

وقال بعض العلماء : "لما وصفت (الكواكب والشمس والقمر) بصفات العقلاء وهو السجود. أُجرت مجراهم فجمعت صفتها جمع العقلاء" [١] .

وقال الألوسي: "وإنما أجريت هذه المتعاطفات مجرى العقلاء في الضمير (أي في قوله: (رأيتهم) " جمع الصفة لوصفها بوصف العقلاء. وإعطاء الشيء الملابس لآخر مع بعض الوجوه حكما من أحكامه إظهارا لأثر الملابسة والمقاربة.. شائع في الكلام" [٢] .

ومع ذلك، فإن في العدول عن وصف الكواكب والشمس والقمر بما ينبغي لها، ووصفها بصفة العقلاء إشعارا للقارئ والسامع، بأن الإيمان بالله يحوّل القلوب الغافلة والعقول التائهة منت حال التيه والزيغ إلى حال الإدراك والاستقرار. فالكفار الذين شبههم القرآن بأنهم كالأنعام أو أضل، لو آمنوا وعبدوا وركعوا وسجدوا لكانوا كمن انتقل من حال الحيوانات والجمادات إلى حال البشر العقلاء الذين وصلوا أرواحهم بربهم وأنابوا إليه.

ومن جهة أخرى فقد يكون نبي الله يوسف (عليه السلام) قد قص ما رآه لأبيه على سبيل الحقيقة. فقد كان إذ ذاك طفلا. والطفل قد يرى في منامه

---

١) ٢) محمد أمين بن خير الله الخطيب العمري (ت١٢٠٣) تيجان البيان في مشكلات القران ـ تحقيق حسن مظفر الروز ـ طبعة جامعة الموصل ـ ١٩٨٥ ـ ص١٨٥.

الأشياء على غير حقيقتها. فقد يرى للكواكب والنجوم وجوها ورؤوسا وأيادي وأرجلا. ويراها تركع وتسجد ويلقى في روعة أن هذه وتلك: الشمس والكواكب. تتحرك نحوه مؤمنة ساجدة. ولذلك لم يستنكر يعقوب (عليه السلام) من طفله هذه الرواية. بل أدرك ما وراءها. وعرف أن لابنه مستقبلاً إيمانيا طيباً. على نحو ما يبين في سورة يوسف بعد ذلك.

النموذج الخامس :

قال تعالى متحدثا عن أبي لهب: (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) [1] .

قراءة حفص عن عاصم وعليها رسم المصحف بفتح كلمة (حمّالة)، وقد قال النحاة في هذه القراءة: إن كلمة (حمّالة)ت منصوبة تعلى أنها مقطوعة عمّا قبلها على تقدير: أذمُّ حمّالة الحطب [2] .

وقال مكي بن أبي طالب "هذه المرأة كانت قد اشتهرت بالنميمة، فجرت صفتها على الذم لها. لا للتخصيص. وفي الرفع ذم. ولكنه في النصب أبين. لأنك إن نصبت لم تقصد أن تزيدها تعريفا وتبييناً. إذ لم تجر

---

١) سورة المسد الآية (٤ ،٥) .

٢) المرجع السابق ــ ص ٢٧٢ ــ .

الإعراب على مثل إعرابها. وإنما قصدت إلى ذمها لا لتخصيصها من غيرها بهذه الصفة التي أختصصتها بها" [١] .

من النماذج الخمسة السابقة يتبيّن لنا أن القران الكريم حين يخالف سياق آياته بين إعراب مألوف وإعراب غير مألوف. إنما يكون ذلك لهدف يتعلق بمرمى السياق وغاية الآية. وتبرز من وراء تلك المغايرة الإعرابية قيم دلالية جديدة لا يستنبطها إلا الذين يتلون كتاب الله وهم متطلعون لما فيه من أسرار تعبيرية تدق على الأفهام ومن هنا جاء الأمر — فيما يخص قراءة القرآن — بالتدبر: أي بذل الجهد في استقصاء معانية ومراميه. لا بمجرد التلاوة في حالة يكون فيها القلب غافلا عن التدبُّر.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا، التوفيق لما يحب ويرضى. وأن يجعلنا ممن يتدبرون كتابه ويعملون به. إنه — سبحانه — سميع مجيب .



١) مكي بن أبي طالب — مشكل إعراب القرآن — ٢/٨٥١ — نقلا عن مرجع رقم (١) .

(١٠)

الموسيقى في القران الكريم

مجلة الوعي الإسلامي العدد ٤٧٣

عندما يعرض القران مشاهد من يوم القيامة يستخدم الألفـــاظ ذات الجرس القوي الذي يتوافق مع عظمة البعث.

نجد في القران الكريم هذه الآيات التي تدعونا إلى أن نقـــرأه مـــرتلا (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) [١] ، وقد جاء في لسان العربة مادة (رتل) الرتل حسن تناسق الشيء، ورتل الكلام: حسن تأليفه وأبانه وتمهل فيه. قال مجاهد: الترتيل الترسل، قال: بينه تبياناً. وقال أبو اسحاق: "والتبيين لا يتم في العجلة وإنما يتم بأن يتبين جميع الحروف ويوفيهـــا حقهـــا مـــن الإشباع".

والآية تدل على أداء القران بصوت حسن جميل، وذلك بأن نحســـن مخارج الحروف، ونعطيها حقها في الأداء والتجويد، وفي التجويد عـــن ومد يصدر عنهم جرس موسيقي عذب.

وتقع في القران على كثير من الآيات الكريمة التي تضـــطرنا ونحـــن نقرأها إلى أن نقيم في أصواتنا هذه الموســـيقى الظـــاهرة في ألفاظهـــا

---

١) سورة المزمل الآية (٤)

وكلماتها ونبرات أصواتها وفي تناسق ألفاظها بعضها مع بعض، وفي تراكيبها اللغوية وعلاماتها وأنساقها.

نحس بالظاهرة الموسيقة أولا في الفواصل التي أحكمها القران إحكاما، وهذه الفواصل التي أحكمها القران إحكاما، وهذه الفواصل "الجمل" تمتد أحيانا امتداداً طويلا، وأحيانا تكون معتدلة من حيث الطول، وأحيانا ثالثة تكون قصيرة واتفاق الفواصل على حرف واحد أطلق عليه البلاغيون مصطلح "السجع" السجع يحدث إيقاعا موسيقيا هو الذي نتحدث عنه.

وقد تحدث علماء البلاغة والتفسير والإعجاز في القديم والحديث عن هذه الظاهرة الموسيقية، وأولوها اهتماما كبيرا، والتمسوا لها شواهد من القران الكريم، والشواهد على هذه الموسيقى الخارجية التي يحدثها السجع كثيرة جدا، افتح أي صفحة في القران، فستجد أمثلة كثيرة تمثل هذه الظاهرة المعجزة، وهي ظاهرة الموسيقى، ومن أمثلة السجع الكثيرة جدا في القران ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [1] ومن الموسيقى ما يأتي من طريق الموازنة وهي أن تكون الجملتان أو الآيتان متساويتان في الوزن دون تقفية كقوله

---

١) سورة التغابن الآية (١ـ٣)

تعالى: (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ) [1]. (وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) [2] إن الآيتين الأوليين تحدثان في هذا التوازن في الوزن موسيقى لا تخفي على أحد، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الآية الثانية، فإن التماثل الحاصل في ألفاظهما يصدر نغما محببا إلى النفس عند تلاوتهما وجرسا موسيقيا عذباً، وهذا يعتبر من الموسيقى الخارجية كالسجع ولكنه يزيد عليه اتفاق الوزن في أكثر من لفظ، فكلمة (نمارق) توازي كلمة (زرابي) وكلمة (مصفوفة) توازي كلمة (مبثوثة) وكلمة (وآتيناهما) توازي وتماثل كلمة (هديناهما) وتركيب (الكتاب المستبين) يماثل (الصراط المستقيم) والأمر يتعلق بالجرس الموسيقي الذي ينبعث من هذا التناسق والتساوي والتوازن والتماثل.

عندما يعرض القران مشاهد من يوم القيامة يستخدم الألفاظ ذات الجرس القوي الذي يتوافق مع عظمة البعث :

وقد تنبه الباحثون في القران الكريم إلى دور الألفاظ المفردة في تصوير الجو العام والمناخ النفسي من خلال الأصوات والحروف التي تنبعث منها موسيقى تصور الجو التنفسي الذي يكون عليه السحر من تمتمات ونفث في العقد: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا

١) سورة الغاشية الآية (١٦) .

٢) سورة الصافات الآية (١١٧، ١١٨) .

وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) [١] فهناك توافق وتلائم بين استعمال الألفاظ المبهمة التي تنشر جوا من الغموض والإبهام وتنشر ظلالا من الشك والحذر، وهذا الجو النفسي الذي يحدثه السحر والعمل بأدواته وآلائه، فألفاظ (الفلق، الغاسق، النفاثات، العقد) من الكلمات التي توحي بالغموض والإيهاء، وهذه الألفاظ تتوافق مع الحال النفسية التي يكون عليها من يزاول السحر من غموض وتأزم وانكفاء وأسرار، وهذا النوع من الألفاظ ينبعث منه صدى موسيقي يصور الجو العام للسحر والسحرة والحسد والحسّاد. ومثل ذلك ما جاء في سورة الناس: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ) [٢] فاستخدام حرف السين المتكرر مع الكلمات يحدث موسيقى تصور حركة النفس الداخلية المتأثرة بوسوسة الشيطان، فلم تأت الموسيقى الداخلية عن طريق الألفاظ والتراكيب وإنما جاءت عن طريق حرف السين الذي له صدى موسيقي خفي يصور ما يجول في نفوس بعض الناس وما يتحرك في ضمائرهم وبين صدورهم خفية بينهم أو في عقولهم وما يدبّرون في خفاياهم من شرور وآثام إزاء الناس.

---

١) سورة الفلق الآية (١ـ ٥) .

٢) سورة الناس الآية (١ـ ٦) .

ومن هذا النوع من الموسيقى التي تتوافق مع الجو النفسي للآيات والجو المعنوي العام سورة "الزلزلة" فقد استخدم القران الألفاظ التي تناسب عظمة يوم القيامة وثقله على الناس، فجاءت الفواصل أي الجمل المسجوعة متوافقة على ثلاثة حروف هي اللام والهاء والألف، وذلك في قوله تعالى: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا) [١] . وهي من الألفاظ التي تملأ موسيقىها النفس وتصك السمع.

والقران عندما يعرض مشاهد من يوم القيامة أو يؤكد فكرة قيام الساعة والبعث يستخدم الألفاظ ذات الجرس القوي الذي يتوافق مع عظمة البعث وهول يوم القيامة وفظاعته : (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا) [٢] ويستخدم الألفاظ القوية القاسية عندما يتحدث عن آيات النار والجحيم وعذاب الكافرين: (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ) [٣] فقد استخدم الألفاظ القاسية وبعض صيغ المبالغة التي تحدث موسيقى صاخبة (كفار ومناع) وأيضا استخدم الأسلوب نفسه وهو أسلوب التناسق الموسيقي بين الألفاظ والجو العام الذي يريد تصويره، ويستخدم التناسق الموسيقي في الآيات التي تصور فظاعة النار (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا

---

١) سورة الزلزلة الآية (١ — ٣) .

٢) سورة المرسلات (١—٤) .

٣) سورة ق الآية (٢٤ —٢٥) .

لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) [١] ، أما عندما يتحدث عن الجنة والنعيم فتأتي الألفاظ سهلة عذبة يشيع فيها جو من السعادة والطمأنينة النفسية (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ) [٢] ففي الآيات الثلاثة إلى جانب السجع الذي يوفر موسيقى خارجية نجد موسيقى داخلية قائمة على التوافق بين موضوع الآيات وبين الألفاظ المعبرة عن هذا الموضوع، فالجو العام في الآيات يدل على الراحة النفسية والسعادة الأبدية التي يعيش فيها المؤمنون في الجنة، فهو مطمئن راض عن هذا العيش الرغد، يأكل ما طاب له من دون عناء أو مشقة (قطوفها دانية) فكل لفظ من الألفاظ بل كل حرف من الحروف أتى سمحا هينا لينا لا عناء فيه ولا عند نطقه ولا مشقة عند تلاوته، فالتوافق واضح بين الحال النفسية من الهدوء والطمأنينة والسعادة وبين الألفاظ السهلة ذات الحروف والأصوات اللينة التي تصدر نغما عذبا وصوتا مؤنسا ينسجم مع الجو النفسي الذي يعيشه المؤمنون .

وتأتي الموسيقى أحيانا من تكرار بعض الكلمات الصاخبة: (الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) [٣] ومثل ذلك في (الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ

---

١) سورة الملك الآية (٧ــ ٨) .

٢) سورة الحاقة الآية (٢١ــ ٢٣) .

٣) سورة القارعة الآية (١ــ٣) .

* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) [١] وهذه الكلمات المكررة ذات وقع قوي وخاص في الأذن والنفس يصور هول يوم القيام وعظمته ، وفي سورة الانشـــراح نجد هذا التكرار الذي ينبعث عنه صوت موسيقي يحدث هزة في الـــنفس تطرب إليه وتشعر بلذة الطمأنينة (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَـــعَ الْعُسْـــرِ يُسْرًا) [٢] فالتكرار إلى جانب أنه يؤكد معنى حصول اليسر بعد الشـــدة والفرج بعد الضيق إلا أنها من الناحية الجمالية والموسيقية يترك في الـــنفس أثرا لصوت موسيقي يترك في النفس أثر لصوت موسيقى عـــذب يجـــري داخل القارئ عندما يقرأ سورة الشرح .

قارئ القران يحس بأثر الموسيقى في كثير من الجمل الخبرية والإنشائية :

وكما تنبعث الموسيقى من الألفاظ والحرف وفي المفردات المكررة تنبعث أيضا من الصور الفنية نفسها من تشبيه واستعارة ومجـــاز عقلـــي ومجـــاز مرسل، لأن الجمال في الفني الصادر عن هذه الصور الفنية التي امتلأ بهـــا القران يصدر موسيقى عذبة تصدر من أركان التشـــبيه أو مـــن عناصـــر الاستعارة والمجاز المرسل، وهذه الموسيقى لا يشعر بها إلا المتـــذوقون ذوو الإحساس الفني الرفيع .

---

١) سورة الحاقة الآية (١ـــ٣) .

٢) سورة الانشراح الآيتان (٥،٦)

وهناك نوع عجيب من الموسيقى يصدر عن روعة النظم القرآني، فإن روعة التأليف والإعجاز في السبك والنظم وإتقان الصنعة يحدث موسيقى تصدر تآلف الكلمات بعضها مع بعض ومن تناسق التراكيب، وهذه الموسيقى الراقية لها أمثلة كثيرة في القران بل إن القرآن الكريم كله شاهد ودليل عليها .

إن قوة النظم وتناسقه وبناءه اللغوي يحدث موسيقى خفية لا يحس بها إلا المتذوقون لهذا البيان المعجز، فنحن نشعر بالنشاز الموسيقي إذا وضعنا كلمة بدل كلمة في القران، وغيرنا في ترتيب الألفاظ وتركيبها، كأن نقدم أو نؤخر، فإننا بذلك نشعر بخلل في النسق القرآني وتصعدا في البناء الموسيقي.

وتتمثل الموسيقى أيضا في استخدام التراكيب اللغوية والنحوية مثل الاستفهام بأغراضه البلاغية والنداء والترجي والأمر والنهي وفي استخدام تراكيب التعجب وأفعل التفضيل الذي يأتي بعد التمييز منصوبا، وينبعث من هذه التراكيب نغما موسيقيا يصور مضمونها ومعانيها، كما أن استخدام الكلمات المنونة بتنوين الرفع أو النصب أو الجر إذا تتالت تعطي نغما عذبا تستريح له النفس وتأنس إليه الأذن وتبعث في القلب خشوعا

مثل قوله تعالى في سورة الواقعة : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا)[1].

ومما لا شك فيه أن قارئ القران يجد كثيرا من الجمل الخبرية والإنشائية ويحس بأثر الموسيقى فيها ظاهرا قويا، ويجد أن بعض الأصوات الصادرة عن الحروف ترسم مشهدا كاملا، وتصور حركة نفسية تامة، والمثال الذي نضربه هنا مشهد الفتاتين اللتين استسقى لهما سيدنا موسى عليه السلام وبعد ذلك جاءتا إليه ومشت إليه إحداهما على استحياء، فإننا نجد مقاطع الجمل وبعض الحروف الصادرة عن بعض الكلمات تمثل وتصور حركة الحياء النفسية وممايتبعه من تردد وتقدم وإحجام ومشي بطيء وتفكير عظيم (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[2] . فلقد بنيت الآية على جمل قصيرة ومتقطعة وكأنا تصور مشاعر الحياء لدى الفتاة وينبعث عن هذا التقطيع تقطيع آخر وموسيقى ساعدت في رسم المشهد وتصويره تصويرا رائعا، ونستطيع أن نقول أن الموسيقى كانت عنصرا فاعلا في رسم العامل النفسي الذي عاشت فيه الفتاة في تلك اللحظة .

---

١) سورة الواقعة الآية (٢٥ ،٢٦) .

٢) سورة القصص الآية (٢٥) .

ومما تقدم نستطيع أن نقول: إن الموسيقى في القران عنصر مهم في تصوير المواقف والمشاهد ورسم معالم الحياة وهو يتآزر من العناصر الفنية الأخرى في نشر الجمال الفني ويقدم دليلا آخر على إعجاز القران، فكما أن إعجازه ماثل في الحروف والكلمة والتعبير والصورة والمضمون أيضا ينجلي إعجازه في الموسيقى المنتشرة في كل كلمة من كلماته وفي كل جملة من جمله، وفي كل تركيب من تراكيبه اللغوية ومستواه الصرفي والفني، ففي القران إذه هذه الظاهرة الصوتية وهذه العناصر الموسيقية التي تنبعث من السجع تارة، ومن الموسيقى الداخلية التي تصدر عن الحروف والألفاظ والتراكيب، وتصدر أيضا هذه الجمل الخبرية والإنشائية ومن الصور الفنية تلذّ لها الأذن، وتأنس لها النفس، وتشعر بالخضوع والخشوع لله سبحانه وتعالى، منشئ هذا القران العظيم الذي أعجز البشر في كل زمان ومكان.



(١١)

القرآن وتعظيمه للعقل

القران الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به

إن فريضة التفكير في القران الكريم ــ كما يذكر العقاد ــ تشمل العقل الإنساني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدولاتها، لأن الكتاب الذي ميّز الإنسان بخاصة التكليف هو الكتاب الذي امتلاء بخطاب العقل بكل ملكة من ملكاته، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون.

والعقل الذي يخاطبه الإسلام، هو العقل الذي يدرك الحقائق، ويوازن بين الأضداد ويتبصر ويتدبر.

فالإسلام هو الدين الذي أعلى من شأن العقل، وعده أداة صالحة للتعرف إلى الحقائق، وعلى رأسها الإيمان بالله، وقدره، ووحدانيته، وهو الدين الذي طلب من الإنسان أن ينطلق إلى الإيمان من الدليل والبرهان.

ولذلك دعا إلى إعمال العقل والتفكير به، وذم الذين يهملون عقولهم ويعطلون نعمة الله فيهم،ويلوذون بتبعية أو تقليد، ومن غير تفكير، ولا نظر، وإنك تجد ذلك واضحا فيما يلي من الأمور.

أولا: لقد طلب القران الكريم من الإنسان أن يفكر فيما يُدعى إليه، إما منفردا بنفسه، وإما مجتمعا مع أناس آخرين. قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم

بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) (١).

ثانياً : لقد امتدح القران الكريم المفكرين، ووصفهم بأنهم هم أرباب العقول، قال تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) (٢) .

ثالثاً : لقد عدَّ القران الكريم الذين لا يفكرون فيما يلقى إليهم، ولا يعملون في عقولهم، كالبهائم، قال تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) (٣) .

وقال الله تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (٤) .

رابعاً : لقد ذم القران الكريم التقليد الأعمى، وهو أن تتبع غيرك من غير وعي ولا تفكير فقال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ

---

١) سورة سبأ الآية (٤٦) .

٢) سورة آل عمران الآية (١٩١، ١٩٢) .

٣) سورة البقرة الآية (١٧١) .

٤) سورة الأعراف الآية (١٧٩) .

نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ) [١]

.

لقد نهى القران الكريم الإنسان أن يتبع شيئا ويؤمن به، من غير أن يكون له على صحته دليل ساطع، وبرهان مقنع، يصل إلى درجة العلم واليقين. قال الله تعالى: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) [٢] .

ولما كان العقل له في الإسلام هذه العناية الفائقة من التقدير. فقد اتخذ له الإسلام منهجا فريدا في تحريره، ليظل العقل عاقلا والفكر راشدا.



١) سورة البقرة الآية (١٧٠).

٢) سورة الإسراء الآية (٣٦) .

(١٢)

سليمان بتعليم بلقيس الاستدلال يعلّمنا

مجلة منار الإسلام العدد ٣٥٢

"كل كلمة في مكانها، وكل جملة معجزة، وفي كل معجزة عبرة خالدة".

هذا هو القرآن الكريم، وهذه جدارة لم ولن يستحقها إلا القرآن الكريم. وفي قصة سليمان صلى الله عليه وسلم مع ملكة سبأ المسماة "بلقيس" عبرة.

يقص القرآن قصة سليمان مع بلقيس في سورة النمل من الآية ١٥ وحتى ٤٤.

١ــ يؤتي الله تعالى داود وابنه سليمان علما يحمدانه عليه. (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) [١] .

٢ــ وذات مرة يحشر لسليمان جنوده المختلفون حشرا منظما كالعادة (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) [٢] .

٣ ــ ويذهب إلى وادي النمل، فتحذّر نملة قومها من أن يحطم سليمان وجنوده نظام النمل الاجتماعي (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ

---

١) سورة النمل الآية (١٦،١٥) .

٢) سورة النمل الآية (١٧) .

يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (١) .

٤ ـ استدلال خاطئ أيتها النملة، إن صغر حجمك لم يدع لك الإحاطة بجنود سليمان فظننت الفوضى فيهم. و لم تدركي أن لديهم نظاما أفضل من نظامك الآلي الذي تفخرين به، هنا يحق لسليمان أن يتبسم من ظنك واستدلالك الخاطئ. (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) (٢) .

٥ ـ ويتفقد سليمان الطير، فيفتقده رائدهم: الهدهد، فيتوعده إن كان غيابه إهمالا لواجب الريادة. (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) (٣) .

٦ ـ يأتي الهدد، يدرك افتقاد سليمان له، وما كان لهذا الهدهد أن يهمل. فقد ذهب يرتاد فوجد ما يستحق الاستطلاع حتى ولو تأخر عن موكب سليمان (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ

---

١) سورة النمل الآية (١٨) .

٢) سورة النمل الآية (١٩) .

٣) سورة النمل الآية (٢١،٢٠) .

عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) [١] .

٧ _ ما هذه الدعوى يا هدد: امرأة تملك قوما، تشعرهم بقوتها من خلال عرش عظيم، هذه أبهة جوفاء يمكن أن تأخذ بالأبصار ولكن كيف يمكن أن تأخذ بالبصائر فتعمى عن عبادة الله نور السماوات والأرض وتعبد من دونه ضوء مخلوقته الشمس. إن دعواك يا هدد خطيرة. (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) [٢] .

٨ _ بلقيس امرأة تحكم قوما فيهم رجال أولو بأس شديد، فما كان لها أن تحكمهم إلا بالحكمة. يصل إليها كتاب بطريقة غريبة. اعتاد البشر آنذاك أن يستعملوا الطيور، كالحمام الزاجل، في نقل الرسائل من مكان ما إلى موطن الحمام وليس العكس، أي إن الحمام لا يستطيع نقل الرسائل إلى غير موطنه أو إلى مكان لم يترب فيه أو مكان يجهله، إذن فهذا هدهد خارق يدل على أن صاحبه الذي أرسله خارق أيضا. استدلال صحيح يا بلقيس. إذن خذي الأمر بحكمة. (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ

---

١) سورة النمل الآية (٢٢ ـ ٢٦) .

٢) سورة النمل الآية (٢٧،٢٨) .

كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بسم الله الرحمن الرحيم * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون * قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّة وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيد وَالْأَمْرُ إِلَيْك فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ) [١] .

٩ـــ يغضب سليمان من المساومة بالهدية والإعراض عن معجزة إيصال الرسالة بالهدد فيتوعد. (فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ) [٢] .

١٠ـــ يرجع حامل الهدية إلى بلقيس بتهديد سليمان، فتدرك بحكمتها أن سليمان، جاد وأن الذهاب بمناوضته أولى من معركة معروفة النتيجة على أرضها. سليمان يعلم بعزم بلقيس القدوم عليه، فيريد أن يعطيها درسا آخر في الاستدلال. (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ

---

١) سورة النمل الآية (٢٩ ـــ ٣٥) .

٢) سورة النملة الآية (٣٦،٣٧) .

إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) [١]

١١ ــ تترك بلقيس عرشها العظيم في عهدة رجالها أولي البأس الشديد، وتسير من بلادها اليمن إلى بلاد سليمان في فلسطين أياما. وتدخل على سليمان، فماذا ترى؟ مفاجأة: إنه عرشها! هل يمكن أن يخونها رجالها فيسلموا عرشها لسليمان؟

الإنقلاب عليها مستبعد من جهتين: الأولى عهدها بأمانة رجالها، والثانية إن هذا العرش هو عرشها، ولكن ماذا جرى عليه؟ تغييرات... إن إجراء التغييرات يقتضي وقتا، إذن كان يجب أن يصل العرش بعدها في الأحوال الاعتيادية، ولكن هذا هو العرش وصل قبلها، إذن فهي المعجزة! ومع هذه المعجزة فلا تزال بلقيس تناور.

يسألها سليمان: أهكذا عرشك؟ فتجيب بدبلوماسية: كأنه هو! وهكذا إجابة الدبلوماسيين ليس فيها "لا" قاطعة وليس فيها "نعم" قاطعة، إنما هي إجابة تحتمل المعنيين معا.

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ

---

١) سورة النمل الآية (٣٨ ــ ٤٠).

كَافِرِينَ) [١] . شتّان ما سليمان وجنوده وبلقيس وجنودها: سليمان مؤمن. وجندي من صغار جنده، وهو الهدد، يستدل على الخالق الكبير مستنكرا السجود لمخلوقته الشمس (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) [٢] .

١٢ ــ إذن فلابد من بيِّنة واضحة مخجلة تقضي على تردد بلقيس في إعلان استلامها للحق (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [٣] . يشرح أبو الحسن الندوي هذه البينة لسليمان، فيقول في ــ قصص النبيين [٤] ــ "أمر سليمان البنائين من الإنس والجن فبنوا لها قصرا ممرداً (= عظيما) من قوارير (= زجاج)، وأجروا تحته الماء. فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبين الماء.

وكان المؤكد أن الملكة تتوهمه ماء فتكشف عن ساقيها، وهنالك تتبين الخطأ وتدرك قصر نظرها وانخداعها بالمظاهر؛ كانت هي وقومها يسجدون للشمس لأنا أكبر مظهر للنور والحياة، التي هي من صفات الله

---

١) سورة النمل الآية (٤١ ــ٤٣) .

٢) سورة النمل الآية (٢٥) .

٣) سورة النمل الآية (٤٤) .

٤) ص٣١٤ .

تعالى. وهنا ينكشف الغطاء عن عينها فتعرف أها كما أخطأت في معاملة الزجاج معاملة الماء فكشفت عن ساقيها كذلك أخطأت في معاملة الخالق فسجدت للشمس وعبدها. وكان ذلك أبلغ من مائة خطبة وألف دليل.

وهكذا كان، فقد تورطت على الرغم من دهائها وذكائها في هذا الخطأ الفاحش، وتوهمت الزجاج ماء رقراقاً يسيل ويموج، فكشفت عن ساقيها، وأرادت أن تخوضه. هنالك نبهها نبي الله سليمان على خطئها، وقال إنه صرح ممرد من قوارير! وانكشف الغطاء عن عينيها! وعرفت جهلها في قياس المظهر على الظاهر وعبادة ا لشمس والسجود لها.

ونحن.. مالنا وبلقيس؟

سورة النمل، التي سردت فيها قصة سليمان وبلقيس، تركز على العلم. وسليمان النبي (عليه السلام) آتاه الله علما. وبلقيس وقومها، المعاصرون لسليمان، استدلوا استدلالا خاطئا على أن لا شمس إله لأها أكبر مظهر للنور والحياة. واليوم يفتتن بعض البشر بالعلم ومنتجاته فيتخذون منه إلها، تعالى الله عما يشكرون.

يقول سيد قطب عن سورة النمل في تفسيره "في ظلال القرآن" (١).

---

١) صفحة ٢٦٢٥ .

" التركيز في هذه السورة على العلم. علم الله المطلق بالظاهر والباطن، وعلمه بالغيب خاصة. وآياته الكونية التي يكفها للناس. والعلم الذي وهبه لداود وسليمان. وتعليم سليمان منطق الطير وتنويهه بهذا العلم.. ومن ثم يجيء في مقدمة السورة (إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) [١] .

ويجيء في التعقيب (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ الاّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ) [٢] .. و (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ الاّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) [٣] . ويجيء في الختام (سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا) [٤] . ويجيء في قصة سليمان (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) [٥] . وفي قول سليمان (يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ) [٦].. وفي قول الهدهد (الاّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) [٧] . وعندما يريد سليمان استحضار عرش الملكة، لا يقدر

---

١) سورة النمل الآية (٦) .

٢) سورة النمل الآية (٦٥) .

٣) سورة النمل الآية (٧٤، ٧٥) .

٤) سورة النمل الآية (٩٣) .

٥) سورة النمل الآية (١٥) .

٦) سورة النمل الآية (١٦) .

٧) سورة النمل الآية (٢٥) .

على إحضاره في غمضة عين عفريت من الجن، إنما يقدر على هذا (الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ) [١] .

ويختصر (Colin Norman) المأساة المعاصرة لتأليه العلم ثم يكتشف أنه ليس بإله في عنوان بليغ لكتاب صـــدر عـــن (World Watch Lnstitute) ت سمّاه (The God The Limps) أي الإله الذي يعرج، وموضوعه العلم والتكنولوجيا في ثمانينات القرن العشرين

(Science and Technology in The Eighties)، يقول في صفحة"٧" "تحظى التكنولوجيا بثناء الناس، حيث ينظرون إليها باعتبارها الأمل الرئيس في حل المشكلات العديدة التي تواجه المجتمع. وهو أمل يتضح من هذه الشكوى التي نسمعها كثيرا والتي تبعث على الأسى" إذا كانوا قد أستطاعوا إرسال رجل إلى القمر، فلماذا لا يســـتطيعون..؟ ومع ذلك ترجع أسباب كثير من محن العالم الحديث، كـــالتلوث وخطـــر الحرب النووية، إلى التطورات التكنولوجية.

ونتيجة لذلك، هناك قدر كبير من التضـــارب والشـــك حـــول التكنولوجيا ودورها في المجتمع. وقد شهدت العشر سنوات الماضية مناظرة حادة وقاسية في بعض الأحيان حول طبيعة واتجاه التطورات التكنولوجية. فلم تعد ثمرات التكنولوجيا تستقبل بثقة مطلقة. وبدلا من ذلك نشـــأت

---

١) سورة النمل الآية (٤٠) .

منازعات بشأن عدة مشروعات تكنولوجية مهمة وأصبحت دعائم المجتمع التكنولوجي تتعرض لهجوم مكثف من نقاد عديدين. امتدت هذه المناظرة خلال السبعينيات، حيث اجتاحت الاقتصاد العالمي سلسلة من الهزات وظهرت عدة مشكلات اجتماعية خطيرة في كل بلد.

إن فوائد التقدم التكنولوجي (تحسين الملبس والمسكن والتعليم والسيطرة على بعض الأمراض وتطوير النقل وزيادة الإنتاج الزراعي والصناعي) أصبح يقابلها، على الأقل جزئيا، تكاليف اجتماعية وبيئية خطيرة أوضحها التلوث وقصور الطاقة والاعتماد المتزايد على موارد غير قابلة للتجديد.

بالإضافة إلى ذلك أثبتت المهارات التكنولوجية عجزها أمام عدة مشكلات مثل الفساد الحضاري والفقر والبطالة والتراع العنصري والبناء الأسري المتفكك. والواقع أن ملامح التغير التكنولوجي العديدة قد زادت من خطورة هذه المشكلات".

هكذا ألهوا العلم والتكنولوجيا.. حتى فقدوا الثقة بهما في انفجار المفاعل النووي في شرنوبيل في روسيا.. وحين تحول المكوك الفضائي (Challenger) إلى وميض ورماد خلال ثوان في أمريكا..

وما أدراك ما تعني (Challenger) ! إنها تعني "المتحدي" فأين تحديه؟ لقد علم تلاشيه المغرورين درسا في ا لتواضع حتى في إطلاق الأسماء.

ولقد اقتفى بعض المسلمين خطى المغرورين بالعلم البشر ذراعا بذراع، وشبرا بشبر، حتى دخل المغرورون جحر تأليه العلم، وخرجوا منه أكثر تواضعا، وهنا يقدم لهم المسلمون الواعون بطاقات تهنئة لانكشاف الغشاوة "العلمية" من عيون المعاصرين كما انكشفت الغشاوة "الشمسية" عن عيون قوم بلقيس، هذه البطاقات مكتوب عليها:

ـ (يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ) [١] .

ـ (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ الاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) [٢] .

ـ (إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ) [٣] .

ـ (وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) [٤] .

هذا ليس تثبيطاً.. بل هذا تقرير للواقع.. وهذا دفع للمزيد.. بالاتجاه الصحيح:

ـ (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) [٥] .

ـ (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) [١] .

---

١) سورة الأعراف الآية (٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥) .

٢) سورة الحشر الآية (٢٢) .

٣) سورة الأحقاف الآية (٢٣) .. وسورة الملك الآية (٢٦) .

٤) سورة الإسراء الآية (٨٥) .

٥) سورة طه الآية (١١٤) .

ـ (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّــنَ السَّــمَاء وَالأَرْضِ) [٢] .

*** *** ***

(١٣)

تقنيات الحوار

في المناظرة بين موسى وفرعون

مجلة منار الإسلام العدد ٣٣٩

قال تعالى:

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَــانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون * قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَـــا مِـــنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا

---

١) سورة المجادلة الآية (١١) .

٢) سورة الأعراف الآية (٩٦) .

إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)(١) .

خلاصة واستنباطات:

١ ــ أول تقنية يمكن الاستفادة منها هذا النص الحواري، هـي ضـرورة امتلاك عناصر القوة، أو ــ بتعبير آخر ــ ضرورة الإعداد الكامل قبل الدخول في أية عملية حوارية، تأسّيا بموسى (عليه السلام) في قصته هذه مع فرعون، إذ تمثلت عناصر القوة بالنسبة إليه في أخيه هارون، وفي استجابة الله تعالى لدعائه وحل عقدة لسانه، وكذا في معجزة العصا واليد البيضاء، وهو أعداد تام ومتكامل.

---

١) سورة الشعراء الآية (١٠ ــ ٣٥) .

٢ ــ يجب على الداعية المحاور أن لا ينتصر لذاته، بقدر ما يجب عليه أن يحرص على انتصار الدعوة، وتفوق الرسالة، فموسى (عليه السـلام) لمـا طلب من الله عز وجل أن يرسل معه أخاه هارون كـان يخشـى علـى الرسالة أن تتوقف بقتله من لدن فرعون، لذلك أراد أن يرافقه هارون حتى إذا قتلوه حمل أعباء الدعوة بعده.

٣ ــ على الداعية المحاور أن يستشعر معونة الله ومعيته حتى يقوى علـى مجابهة المواقف الحرجة، ويتمكن من تجاوز كل العراقيل والصّعاب التي قـد تعترضه في طريق تبليغ دعوة الحق، وهذا واضح في قوله تعالى لموسى (عليه السلام): (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ) [1] ، وفي ذلك مزيد من الدعم لشرط الثقة بالنفس الذي يعتبر من أهم شروط الحوار الناجح.

٤ ــ بان من خلال هذا النص الحواري أيضا كيف أن موسـى (عليـه السلام) كان جريئا في قوله الحق بلا حذر ولا تدرُّج منذ الوهلة الأولى للحوار، وهذا طبيعي في حقه لأن الله تعالى طمأنه مباشرة وعهد إليه بألاّ يمسه سوء من فرعون. أما نحن ــ دُعاة اليوم ــ انسجاما مع طبيعة الواقع المعيش، وانسجاما كذلك مع الخط العام للدعوة وما يقتضيه من تتـدرّج، ومراعاة لطاقاتنا وإمكاناتنا، فإن الموقف الصحيح في تعاملنا مع طواغيـت العصر هو أن نقول الحق على قدر المستطاع احتياطا للدعوة حتى تسـتمر

---

١) سورة الشعراء الآية (١٥) .

وتنتصر في آخر المطاف وليس جبنا وزهدا في الجهاد بالنفس، وهذا الاحتياط في قول الحق أمام سلاطين الجور — من أجل الدعوة — لا يعني مطلقا أقرارهم على المنكر والتواطؤ معهم عليهم.

٥ — نستنتج من حوار موسى (عليه السلام) مع فرعون كذلك، كيف أن موسى (عليه السلام)، لم يثنه ولم يصرفه استهزاء فرعون وسخريته وتهديده ليبتعد عن هدفه المنشود، وهو بيان الحق والانتصار للدعوة، لذلك لم ينفعل ولم يتوتر من بداية الحوار إلى نهايته، وعندما اتهمه فرعون بالجنون ردّ ببساطة وهدوء: (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) [١]. وهذا خلق أساس، وتقنية رائعة في الحوار أن يتحلى المحاور بالأناة ورباطة الجأش، حتى لا يتم العدول عن الموضوع الرئيس للحوار إلى معارك هامشية، كما يلوح جليا من خلال ردود موسى (عليه السلام) على استفزازات تفرعون.

وهذا هود (عليه السلام) عندما قصد قومه إهانته بقولهم: (إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ) [٢].

أجاب متمسكا بالموضوع الأصلي في دعوته ورسالته: (إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ) [٣]. والطريقة ذاتها سلكها

---

١) سورة الشعراء الآية (٢٨).

٢) سورة هود الآية (٥٤).

٣) سورة هود الآية (٥٤، ٥٥).

نوح (عليه السلام)، لما خاطبه قومه قائلين: (مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) [١] . فلم يغضب ولم يثر ولم يرد الصاع صاعين وإنما أجاب بهدوء: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) [٢]

.

٦ ـــ نستفيد كذلك من هذا النص الحواري أن على الداعية أن يتجنب الوقوع في زلّة قد يستثمرها الطاغية للتشهير به إعلامياً، فقد ظهر من خلال حوار موسى مع فرعون كيف حاول هذا الطاغية استغلال قتل موسى للقبطي من أجل التشهير به قائلا: (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) [٣] . فحتى لا تترك الفرصة لمتصيدي الأخطاء ومترصدي، الهفوات والشبهات، على الداعية أن يتحلى باليقظة والحذر، بل إنه من الحكمة كذلك أن يعمل الداعية في حواره مع المدعو على إزالة كل الشكوك من نفسه في أن له من وراء دعوته مطامع أو أغراضا شخصية تأسيا بالرسل (عليهم السلام)، في دعوتهم ومحاورتهم لأقوامهم. فهذا نوح (عليه السلام) قال لقومه وهو يحاورهم: (وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ

---

١) سورة هود الآية (٢٧) .

٢) سورة هود الآية (٢٨) .

٣) سورة الشعراء الآية (١٩) .

عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ) (١) . وهذا هود (عليه السلام) حاور قومه بالمنطق ذاته قائلا: (يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (٢) . وهذا نبي الله صالح (عليه السلام) قال: (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ الاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) (٣) . وكذلك شعيب (عليه السلام)، انظر سورة الشعراء الآية ١٨٠، بل هذا خاتم الرسل والأنبياء محمد عبد الله صلى الله عليه وسلم يحاور كفار قريش ممتطيا صهوة المنطق ذاته قائلاً: (قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (٤) .

٧ ـــ على المحاور أن يدرك طبيعة المحاور ونفسيته ويحاوره بناء على ذلك، فموسى (عليه السلام) في حواره مع فرعون بدأ أول ما بدأ بالعزف على الوتر الحساس بالنسبة إلى فرعون، أ، على العقدة القائمة في نفسه وهي ادعاؤه الربوبية، لذلك خاطبه بقوله: (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (٥)، وانظر كيف عبر بصيغة المفرد "رسول" عوضا عن "رسولا" دلالة على وحدة الرسالة، وإن تعدد المرسل. فمعرفة شخصية المحاور إذن تساعد على ترتيب أولويات الحوار معه، وتحديد ما ينبغي تقديمه ضمن هذه الأولويات وما

١) سورة هود الآية (٢٩) .
٢) سورة هود الآية (٥١) .
٣) سورة الشعراء الآية (١٦٤) .
٤) سورة سبأ الآية (٤٦) .
٥) سورة الشعراء الآية (١٦) .

ينبغي تأخيره، كما تيسر الاهتداء إلى أليق أسلوب في مخاطبته والتواصل معه .

٨ ــ من أهم التقنيات المستفادة أيضا من هذا الحوار: التدرج في إقامة الدليل والحجة، وعدم إدراج كل البراهين والحجج دفعة واحدة، بل الاقتصار على الضروري منها حسبما يتطلبه الموقف وتقتضيه الحاجة إلى البيان والإقناع أو الرد، فهذا موسى (عليه السلام)، ترك أ/ر معجزاته جانبا و لم يظهرها إلا في الوقت المناسب عندما هدده فرعون بالسجن، وهذه التقنية في الحوار تنسجم تماما مع القاعدة الحركية التي تقول: "ليس كل ما يعرف يقال، وليس كل ما يقال حان وقته، وليس كل ما حان وقته حضر أهله" .

٩ ــ كما أننا نستفيد من رد موسى (عليه السلام) على فرعون لما سأله: (ما رب العالمين؟) ــ وأداة الاستفهام "ما" هنا تدل على أنه طلب معرفة حقيقة الرب ــ فقال موسى: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) [1] ، إن الذي يجب أن يحكمنا في حواراتنا مع الآخرين هو البعد المقاصدي، فنقف عند حدود ما فيه مصلحة أو من ورائه فائدة، ونصرف الإجابة إلى هذا الاتجاه تجنبا للجدال العقيم، وهو ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم مع من سألوه عن الأهلة : ظهورها، ونموها،

---

١) سورة الشعراء (٢٤) .

وتناقصها، ما بالها تصنع هذا؟ فوجّهه الله تعالى إلى صرف الإجابة إلى ما هو أهم وعملي في حياتهم بقوله تعالى: (قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) [١] .

١٠ ـــ من التقنيات الأساسية في الحوار التي تم توظيفها في هذا النص: أن يعرض المحاور أفكاره بكامل الوضوح مدعومة بالحجج والبراهين كما فعل موسى (عليه السلام) فإما أن يتبنى المحاور الحق وإما أن يعاند وتعنت على وضوح الفكرة وقوتها، فيكون المحاور قد أدى رسالته، وقام بواجبه، وحقق عليه الشهادة كما قال تعالى: (لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) [٢] .

١١ ـــ لما قال فرعون عن موسى (عليه السلام): (إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) [٣] . أجاب موسى قائلا: (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) [٤] . ولابد هنا لكل ذي عقل لبيب من الالتفات إلى هذه الإشارة اللطيفة في قول موسى (عليه السلام): (إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) التي تستبطن ردا مناسبا على اتهام فرعون له بالجنون: ((إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) [٥] ، وفي الوقت ذاته تختزن أدبا جمّا

١) والآية الكاملة هي: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) . سورة البقرة (١٨٩) .

٢) سورة الأنفال الآية (٤٢) .

٣) سورة الشعراء الآية (٢٧) .

٤) سورة الشعراء الآية (٢٨) .

٥) سورة الشعراء الآية (٢٧) .

في الرد على المستفز. ثم إن هذه اللمحة السريعة والإشارة اللطيفة جاءت بعد استمرار عزف موسى (عليه السلام) على الإيقاع نفسه في إثبات الربوبية لله وحده ونزعها عمّن سواه وهو الموضوع الأصلي في حوراه مع فرعون، مما يميط اللثام عن تقنية أخرى في الحوار لا تقل روعة وأهمية وتتمثل في مراعاة موقف المحاور وأخذه بعين الاعتبار أثناء محاورته ومراجعته، دون إغفال الموضوع الأصلي للحوار طبعاً. لأننا إذا أغفلنا الموضوع الأصلي في الحوار وانْسقنا مع الهوامش والجزئيات التي قد يثيرها المحاور بقصد أو بغير قصد نكون قد ضيعنا القصد الأصلي من الحوار وضللنا السبيل في متاهات لا قيمة لها ولا نهاية، وفتحنا على أنفسنا جبهات نحن في غنى عنها. كما أننا إلا لم نبال بما يثيره الآخر وعشنا في غربة تامة عما يطرحه، ولو على سبيل استفزازنا وصرفنا عن جوهر النقاش والحوار، نكون أشبه بمن يحاور نفسه، وقد يفهم ذلك على أنه عجز وضعف.

فالمسألة إذا تحتاج إلى أن توضع في ميزان دقيق يحفظ لها توازنها بين التركيز على الموضوع الأصلي في الحوار أو ما يعبّر عنه بمحل النزاع مع الأخذ بعين الاعتبار ما يصدر عن الطرف المحاور وحسن توظيفه — وإن كان هامشيا — في اتجاه خدمة الموضوع الأصلي متى أمكن ذلك على أن لا يصبح طاغية ومهيمنا على أجواء الحوار.

فالمزاوجة إذا بين التركيز على القصد الأصلي من فتح باب الحوار مع الآخر، مع التفاعل مع منطوقه وإقامة الاعتبار لاعتراضاته وحسن التعامل معها من أهم تقنيات الحوار والتواصل الناجحين.

١٢ ـ "الإيمان العميق بأن الإنسان مهما طغى وتجبر وابتعد عن الله فإنه يظل متحسسا لدعوات الحق ومعاني الخير من خلالا الدوافع الخيّرة المنطلقة من فطرة الله التي فطر الناس عليها، الراقدة في أعماقه، المستيقظة ـ في بعض الحالات ـ على صوت خير، وكلمة حلوة، تنفتح عليها الروح في حالة الهدوء والتأمل، ولذا علينا أن نلقي إلى كل إنسان ـ مهما كانت درجة انحرافه ـ بالكلمة الحلوة والصوت الخير المملوء بالمحبة، فربما يلتقيان بالجو الروحي الهادئ الذي يكون منفتحا على الهداية من خلال ذلك كله، وربما كان هذا هو السر في التوجيه الإلهي لموسى وهارون أن يتحدثا ـ مع فرعون ـ بالقول الليّن أملا في أن يتذكر بتذكيره بمعاني الخير، وأن يخشى بتخويفه من المصير المظلم الذي يستقبله عند الله إذا استمر في طريقه المنحرف في أجواء الضلال" [١].

١٣ ـ الحوار قد يستفيد منه غير المعني به أو الموجه إليه مباشرة ـ كما هو الشأن بالنسبة إلى من آمن مع موسى (عليه السلام) ومنهم السحرة ـ الشيء الذي يبعث الداعية على التفاؤل دائما وعدم الاستسلام لليأس،

---

١) "الحوار في القرآن" للعلامة حسين فضل الله، ص٢٧٠ .

مهما تكن النتائج الظاهرة للحوار، ما دام القصد هو الله تعالى، ونصرة الحق. والثابت أن الله تعالى لا يضيع عمل المخلصين المجتهدين في تحري الشرع، لا من حيث إظهار عملهم في الدنيا والتمكين لطريقته، ولا من حيث مكافأتهم في الآخرة بأحسن ما كانوا يعملون .



(١٤)

التكوين المعدني الكيميائي لجسم الإنسان وعلاقته بالأرض

مجلة منار الإسلام العدد ٣٥٦

الحمد لله الذي أنزل على عبده ورسوله قرآنا عربيا غير ذي عوج أخرج بصادق بيانه وقوّته قلوبا كانت في الضلالة غارقة وهائمة فأصبحت في نعمة وفي طريق الحق سائرة لا جائرة وظلت آياته ومعانيه منبراً وإعجازا مادامت الأرض والأفلاك دائرة.

إن بتطور العلم وتقديم تقنياته تتكشف كل يوم دلائل تقوي حجة الحق وتبطل وتزهق منطق الباطل ذلك هو الإعجاز والبرهان الذي لفت انتباه العلماء والباحثين والدارسين للعلوم في مختلف مشاربهم.

وإن من أعجب الآيات القرآنية الكريمة التي تصنع الدهشة والإبهار لأولئك العلماء تلك الآيات التي تكشف عن كثير من الحقائق العلمية التي تتوصل إليها بمساعدة التجارب العلمية والتي لا شك كان الأقدمون الأوائل يجهلونها ولا يدركون خفاياها لا لقلة فهمهم ولا لضيق أفقهم ولكن بسبب ضعف آلياتهم البحثية. فلما أدركناها في عصر التقنية الحديثة والتكنولوجيا المتطورة ساورنا الظن والكبر بأننا أحرزنا قصب السبق فيها.

ولكن بتدبُّر ووقفات تأمل في معاني آيات الكتاب الكريم وجدنا أنها تميط اللثام عن هذه الجوانب العلمية في وجه إعجازي عظيم مما يبرهن على خلود حقائق الآيات وشموليتها زمنا ومكانا. ومما يدلل بدون أدنى شك أو ريب أن هذا القرآن هو البرهان الواضح والدليل القاطع والقول الفصل والحجة الخالدة ذو المنطق العلمي وهو المصدق لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو سندها وعضدها (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [1] . لذلك نجد أن أبعاده العلمية المنطقية لا تكتشف إلا بدراسة متعمقة لكل آية كريمة تحدثت عن أي علم في مجالات العلوم المختلفة. وعلى ضوء ما ثبتت باليقين صحته. عند ذلك وبلا شك يجد كل متخصص مشربه ومرتعه في المجال الذي يعنيه مما يقوده إلى إيمان بالله بصدق ويقين لا يقاربه أو يلامسه شك أو ريب.

---

١) سورة النجم الآية (٣، ٤) .

لذلك يتضح أن القرآن الكريم والعلم الجاد الحقيقي في مختلف فروعه لا يتعارضان، وأن أي حدث علمي يتعارض مع النص في القرآن الكريم، فهو رد لا يعبِّر عن علم أو حقيقة.

إن موضوعنا في هذا يدخل ضمن الآيات الكونية المتعلقة بالتكوين الكيميائي للجسم البشري والعناصر الكيميائية التي يحتويها جسم الإنسان والتي ذكرت في القرآن. ويتم التناول في هذا الإطار بصورة تحكي في بدايتها عن العناصر الكيميائية وترابطها وتداخل تفاعلاتها مع تكوين الأرض وحركة الجزيئات فيها. قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً) [1] . والذي يعكس مدى ارتباط الإنسان بالأرض وعلاقته الوطيدة بها التي بيّنها لنا النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "كلكم لآدم وآدم من تراب" . وقول الله تعالى: (إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ) [2] . ترابط العناصر الكيميائية بجزئيات الأرض:

إننا ــ بفعل البراكين والزلازل الأرضية وعلى مدى مليارات السنين ــ نجد أن العناصر والمواد الأكثر كثافة في الأرض اتجهت إلى الاستقرار في جوف الأرض مثل الحديد والنحاس والزنك والنيكل

١) سورة المؤمنون الآية (١٢ ــ ١٤) .

٢) سورة الصافات الآية (١١) .

وغيرها، بينما شقت المواد الأخف كثافة كثاني أوكسيد السيليكون والماء والغازات المختلفة طريقها إلى سطح الأرض.

وقد اتضح أن الماء الذي هو عبارة عن هيدروجين وأوكسجين يخفف درجة حرارة الصخور حيث أثبتت الدراسة المخبرية أنه عندما تغوص طبقة الليوسفير الباردة الكثيفة في طبقة الأسثيوسفير الحارة تتحول المواد الكيميائية التي تحمل الماء، والتي تنصهر عند درجة أقل إلى صخور ذائبة يدفعها ضغط البخار والعناصر الكيميائية المختلفة إلى الأعلى. حيث ينجم عن ذلك نشاط بركاني فوق طبقة القشرة الأرضية. وبالتفكر في آيات القرآن الكريم نجد ذلك في الآيات الآتية:

ـ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [١] .

ـ ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [٢] .

يتضح من ذلك والله أعلم، أن الآيتين تشيران إلى العلاقة بين الكتلة الأرضية بما فيها من عناصر ومواد كيميائية ثقيلة وتلك الجاذبية الأرضية.

حيث تتخلص الأرض من دورها المحدود واثبات الذي كان يلازمها وتتغير القوة المنتظمة لجاذبية الأرض عند إلقاء المواد التي كانت تحملها. وبالتالي في هذا تحديد لمدى الترابط الجزئي لمكونات الأرض في

---

١) سورة الزلزلة الآية (٢،١) .

٢) سورة الانشقاق الآية (٤،٣) .

الحياة الدنيا وتخلّيها عن ذلك الانتقال إلى الحياة الآخرة، كما أثبتت ذلك الدراسات الجيوفيزيائية الحديثة.

إن ارتفاع كثافة جوف الأرض ساد الاعتقاد على احتوائه على تركيز عال من بعض العناصر الكيميائية الفلزية، وكمثال على ذلك الحديد الذي يعتقد على أنه يمثل أكبر نسبة بدليل أن تركيب الأحجار النيزكية الكثيرة والغنية بالحديد التي تتساقط على سطح الأرض يعتقد أنها مماثلة للمواد التي تكونت منها الأرض.

وتوصل الباحثون إلى قيام الاختلافات الدقيقة في الجاذبية باستخدام أجهزة القيام الحديثة. ويفيد قانون الجاذبية بأن قوة الجذب بين جسمين تتناسب طردا مع كتلة كل منهما وعكسا مع مربع المسافة بينهما.

حيث أن: $F = G\,Mm/R^{2}$

R= هي المسافات الفاصلة (نصف قطر الأرض) .

m= هي كتلة صغيرة متصلة بلولب حساس داخل الجهاز القياسي.

M= هي كتلة الأرض.

G= هي ثابت الجاذبية.

وبتطبيق حيثيات هذا القانون اتضح أن قياس كتلة الأرض:

= ٩,٧ × ٢٧١٠ غرام

إن التفاوت في كثافة كتلة المواد الأرضية يحدث نتيجة للتفاوت في درجة الحرارة والعناصر الكيميائية والشكل البلوري. وهذه الاختلافات الطبيعية في الكثافة تؤدي إلى اختلاف في المجال المغناطيسي للأرض والله تعالى أعلم.

وبعد الدراسة وجد أن هنالك مجموعة عناصر كيميائية في جسم الإنسان يصل عددها إلى ثمانية عشر عنصرا بعد إضافة الكوبالت وهي العناصر نفسها الموجودة في الطين اللازب، التي أصبحت تشكل مكونات حيوية تدخل في تصنيع الهيموغلوبين مثل الحديد ومنها يدخل في تكوين الأنزيمات أو مساعدات أنزيمية، كالماغنسيوم والبوتاسيوم والكالسيوم والكوبالت، وكذلك منها ما يعمل كمحفزات هرمونية بالإضافة إلى الأوكسجين والهيدروجين والكربون والمنجنيز والنحاس.

إن السرد من ذلك هو توضيح الصورة بقصد إبراز الوجه الإعجازي والدليل القطعي على شمولية النص القرآني.



(١٥)

السحب في ضوء القرآن الكريم

مجلة منار الإسلام العدد ٣٥٦

سبحان القائل في كتابه العزيز(قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ) [١] . دعوة صريحة من خالق السموات والأرض إلى التفكر في بديع صنعه والتأمل في أسرار آياته، فجدير بنا ـــ معشر المسلمين ـــ أن نتأمل في هذا الكون الفسيح المليء بالأسرار والعجائب. وإذا كان القرآن كتاب الله المقروء فإن الكون كتاب الله المنظور.

والقرآن حافل بالإشارات العلمية الكونية، وكل منها تدعو الفطرة الموحّدة لمزيد التوحيد والخشوع والإخبات للحق سبحانه.

ومن هذه الآيات الكونية ـــ الآيات المتعلقة بالظواهر الجوية في الكون ـــ ما يتعلق بالسحب وكيفية تكونها وأنواعها والأسرار العلمية الكامنة فيها.

١) سورة يونس الآية (١٠١) .

تعريف السُّحُب: السحب لغة: الغيوم والسحابة التي يترل منها المطر، سُمّيت بذلك لانسحابها في الهواء والجمع: سحائب، وسحاب، وسُحُب [(١)].

- السّحب في المصطلح العلمي: كتل من قطيرات الماء، أو بلورات ثلجية دقيقة محلقة في الهواء [(٢)].

السحب في القرآن

وردت لفظة (السحاب) في القرآن في أحد عشر موضعاً.

تسعة منها تصف العلاقة التبادلية بين السحّاب والرياح في دقة متناهية.

قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا) [(٣)].

وقال تعالى: (يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) [(٤)].

وقال تعالى: (يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ) [(٥)].

وقال تعالى: (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) [(١)].

---

١) لسان العرب، مادة (سحب) ١/٤٦١.

٢) الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة، ص١٩٣، ط٢ (١٤١٩هـ ـــ ١٩٩٩م).

٣) سورة الروم الآية (٤٨).

٤) سورة الرعد الآية (١٢).

٥) سورة النور الآية (٤٠).

وقال تعالى: (وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاء سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ) (٢) .

وقال تعالى: (حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء) (٣) .

وقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا) (٤) .

وقال تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ) (٥) .

قال تعالى: (وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (٦) .

ويرد السحاب في موضع عاشر بلفظ المزن وبدلالة كونية كبرى أعظم شأنا من إنشاء السّحب.. وهي التحكم في إنزال ماء السحاب زمانيا ومكانيا.. متى وأين شاء الله!!

يقول تعالى: (أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ) (٧) .

---

١) سورة النمل الآية (٨٨) .

٢) سورة الطور الآية (٤٤) .

٣) سورة الأعراف الآية (٥٧) .

٤) سورة النور الآية (٤٣).

٥) سورة فاطر الآية (٩) .

٦) سورة البقرة الآية (١٦٤) .

٧) سورة الواقعة الآية (٦٩) .

ويرد في موضع حـــادي عشر بلفظ المعصرات في قـــوله تعـــالى:
﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا[١]﴾ [٢] .

كيف تتكون السحب؟

تتكون السحب من الماء المتبخّر من البحار والمحيطات والبحيرات والأنهار ومن التربة الرطبة والنباتات. وهذا البخار يتمدد ويبرد كلما ارتفع في الهواء حتى يتكثف على هيئة قطرات مائية دقيقة.

ولابد لتكون السحب من شطرين يجب توافرهما في الهواء العلوي:
الأول: أن يكون الهواء فوق مشبع بالبخار.
الثاني: أن يكون محتويا على أنوية التكاثف التي تحملها الرياح مـــع بخار الماء إلى الجو العلوي.

ولكي يكون الهواء فوق مشبع حتى تتكون السحب لا بـــد مـــن ارتفاع نسبة الرطوبة في الهواء ولابد من تبريده. وهناك طرق عديدة لتبريد الهواء:

١ ـــ تبريد الهواء تلقائيا عند ارتفاعه إلى التروبوسفير حيث تكون درجات الحرارة منخفضة تصل إلى ٧٠ درجة مئوية تحت الصفر لأن الحرارة تقل بازدياد الارتفاع، وهذا تبريد طبيعي.

---

١) سورة النبأ الآية (١٤) .

٢) أنظر: نظرات في الكون والقرآن، للدكتور عبدالهادي ناصر، ص٤١٧، المكتبة الأكاديمية ـــ القاهرة، ط١ (١٩٩٥م) .

٢ ـــ تبريد نتيجة التمدد الفجائي للهواء الصاعد بسبب نقص الضغط الجوي كلّما ارتفع الهواء عن سطح الأرض ويسمى هذا التمدد في علم الفيزياء بالتمدد الأدياتيكي الذي يؤدي حتما إلى التبريد الذاتي للهواء .

٣ ـــ وهناك عوامل أخرى للتبريد مثل اختلاط الرياح الدافئة برياح باردة آتية من المناطق القطبية.

٤ ـــ اصطدام الرياح بأعالي الجبال الشامخة والتلال.

وللجبال دور عظيم في تكثيف السحاب فإذا اصطدمت الرياح بقمة جبل فإنها تبرد إلى ما فوق التشبّع نظراً لبرودة القمم العالية للجبال. أما إذا اصطدمت الرياح بالجبال دون أعاليها فإن الجبل يرغمها على الصعود إلى الأعالي حيث تبرد ويتكاثف بخار الماء فيها إلى سحاب ويتكاثف سحابها مطرا على أعالي تلك الجبال، ومن هنا كانت الجبال منابع للأنهار.

ويشير الله سبحانه وتعالى إلى هذا الارتباط بين الجبال العالية ونزول المطر في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتًا [١]) [٢].

أنواع السحب

---

١) سورة المرسلات الآية (٢٧) .

٢) انظر: الكون والإعجاز العلمي في القرآن، للدكتور منصور حسب النبي، ص٢٠٦، ٢٠٧، دار الفكر العربي، مصر ط٣ (١٤١٦هـ ـــ ١٩٩٦م) . ومعجزة القرآن، لنعمت صدقي، ص٣٦، دار الاعتصام، ط٣ (١٤٠٦هـ ـــ ١٩٨٦م)، نقلا عن كتاب (معجزة القرآن في وصف الكائنات) لحنفي أحمد.

أ ـــ السحب البساطية (الطبقية)

هذه السحب تتكون بالنمو الأفقي وتشبه البساط.

ويشير إليها قول الحق عز وجل: (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاء وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (١) .

أي: الله الذي يرسل الرياح فتؤدي إلى إظهار السحب التي يبسطها الله سبحانه في السماء على هيئة طبقة ويجعلها قطعا.

والمقصود بالودق: نقاط الماء الكبيرة النامية التي تخرج من هذه السحب، وهذه السحب لا تنتج بردا أو عواصف رعدية، فتكون الأمطار النازلة منها مدعاة للاستبشار بها لخلوها من الآثار المدمرة.

ب ـــ السحب الركامية:

ويشير إليها قول الله سبحانه وتعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ) (٢).

---

١) سورة الروم الآية (٤٨) .

٢) سورة النور الآية (٤٣) .

وهذه السحب تتكون بالنمو الرأسي وتشبه الجبال، وتتميّز بسمك كبير حيث إن ارتفاعها قد يصل إلى أكثر من ١٥ كيلومترا، وهي من أهم أنواع السحب لأنها هي التي تعطي البَرَد وفيها تتكون ظواهر الرعد والبرق. والبَرَد هو بلورات الثلج النامية.

ولقد تمت دراسة هذه السحب الركامية التي تشبه الجبال بواسطة أشعة الرادار، وتبين أنها تتألف من وحدات صغيرة، يتم تجمّع كل اثنتين أو أكثر منها لتكوين السحابة الركامية التي عند اكتمال نموها تتكون من ثلاثة مناطق هي:

- المنطقة السفلى: وهي منطقة نقاط الماء النامية.
- المنطقة الوسطى: وهي منطقة نقاط الماء فوق المبرد.
- المنطقة العليا: وهي منطقة بلورات الثلج (البَرَد) .

تأملات في الآية المتحدثة عن السحب الركامية

في هذه الآية إشارة إلى الحقيقة الكهربائية التي اكتشفها العلم الحديث والتي تقوم عليها الظواهر الجوية. فلقد ثبت أن جسيمات الغبار الخفيفة والمرئية ليست هي كل ما يتكاثف عليه بخار الماء في الهواء، بل إن الأيونات (الذرات المشحونة كهربائياً) هي أيضا أنوية تكاثف مهمة.

والسحب تكون عادة مشحونة كهربائيا ثم يؤلف الله بين هذه السحب بالرياح بفضل الشحنات الكهربائية المختلفة التي تتولد في طبقات هذه السحب فتعمل على تقاربها وتجاذبها بقوة كهربائية شديدة فيتراكم

بعضها فوق بعض وتصبح كالجبال. وكلما استمرت الرياح على تلقيح السحابة الركامية ببخار الماء تحول هذا البخار إلى برد في أعالي السحابة، وتنزل قطرات الماء الكبيرة (الودق) من هذه السحابة الركامية. وقد ينزل منها أيضا البرد المعروف عند العامة بالملح، والذي يتكون من التصاق بلورات الثلج بنقاط الماء فوق المبرد أثناء سقوطها من أعالي الجبل الركامي في السماء، فتنمو بلورات الثلج بسرعة بدرجة قد تصل فيها قطعة البرد الواحدة حجم الرمّانة! ويكون البرد رحمة إذا كان صغيرا ونقمة إذا كان كبيراً.

وتربط الآية الكريمة بين هذا البرَد وبين البرق ويتّضح من هذا الربط دور البرَد في توليد الشحنات الكهربائية على طبقات السُّحب أثناء تحركاته بين طبقتين مشحونتين بشحنتين كبيرتين مختلفتين بعضهما عن بعض، وكانت المسافة بينهما مناسبة، فإن الشحنات الكهربائية تتغلب على مقاومة الهواء وتقفز الإلكترونات من السحابة المشحونة بشحنة سالبة إلى السحابة المشحونة بشحنة موجبة، أي يحدث تفريغ كهربائي هائل على شكل شرارة كهربائية هي البرق. والبرق يكون مصحوبا بالرعد. [١] .

---

١) انظر: الكون والإعجاز العلمي في القرآن ص٢٠٧ ــ ٢٠٩. وكتاب الجغرافيا للصف الأول الثانوي، ص١٣٥، ط٦ (١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠). وكتاب العلوم للصف الثاني الإعدادي، ص٩٨، ط٧ (١٤١١هـ ــ ١٩٩١م).

الخاتمة

وهكذا بعد هذه لاجولة السريعة مع الآيات الكونية المتعلقة بالظواهر الجوية لا سعنا إلا أن نزداد إيمانا ويقينا بهذا الكتاب الرباني الحكيم، وقد اتضح لنا أن هذا الكتاب الحاوي لهذه الآيات ليس من كلام محمد صلى الله عليه وسلم الأمي الذي عاش في بيئة أميّة لم تعرف من علوم الكون شيئاً.

بل هو من عند العليم الخبير، خالق السماوات والأرض الذي أحاط بكل شيء علما. وليس غريبا أن يأتي القرآن الكريم بكل الموافقات والمطابقات لكل ما وصلت إليه علوم البشر من نتائج لأنه كما أن القرآن الكريم كلام الله سبحانه، كذلك الحقائق العلمية هي من وضعه سبحانه.

فمن المستحيل أن تتصادم الحقائق العلمية مع الآيات الكونية: وسبحان القائل: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [1] .



١) سورة فصلت الآية (٥٣).

(١٦)

التجسيم الفني للمعنويات في القرآن الكريم

مجلة منار الإسلام العدد ٣٤٣

مفهوم التجسيم قديما وحديثا (التجسيم الفني) مصطلح أدبي نقدي حديث، يغاير المصطلح الفكري الذي ظهر في التصور البشري القديم، والذي يقوم على ضروب من التصور الخاطئ في وصف الباري ــ عز وجل ــ كتصورات اليهود التجسيمية له (١) ــ سبحانه ــ وكتصور فرقة من الفرق الإسلامية المنقرضة، عُرفت بفرقة (المشبهة) و (المجسمة)، رفضها الفكر الإسلامي القديم، والحديث أيضا لخروجها عن مفاهيمه السليمة، إذ كانت تلك الفرقة ــ لجهلها وخطأ تصورها ــ تحمل الصفات الإلهية، التي في (الآيات المتشابهة) (٢) ، كاليد، والقبضة، والعين، والوجه، والاستواء.. تحملها على ظواهرها في تلك الآيات، من غير أن تعمد إلى تأويلها بما يلائم الذات الإلهية العلية كالذي في قوله تعالى مثلا:

---

١) كالاعتقاد بالتلابس بين الإله والطبيعة، ولا سيما في أسفار (العهد القديم) الأولى، إذ يزعم اليهود في تلك الأسفار أن الإله يتخذ عناصر الطبيعة: سماويها وأرضيها مكانا لسكناه. ــ حاشاه ــ فيجعلونه يسكن الجبال، والضباب، والرياح، وغيرها. ينظر سفر المزامير: المزمور ٦٨: ١٥ ــ ١٦ . وأخبار الأيام الثاني ٦: ١، وسفر الملوك الأول ١٩ : ١١ ــ وينظر غوستاف لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص٦٨، ترجمة عادل زعيتر .

٢) وهي الآيات التي تتعلق بالصفات الإلهية، فلا يصح حملها على ظواهرها، بل لابد من تأويلها، بما يليق بتلك الصفات في ضوء الشريعة والعقل. وترد هذه الآيات المتشابهة إلى الآيات المحكمات لتأويلها بها. ينظر كتاب (متشابهة القرآن) للقاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ) ص٧ ومقدمة الدكتور عدنان زرزور محقق الكتاب.

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [١] . إذ لا يُراد باليد هنا العضو المعروف، بل هي مجاز عن معنى آخر، عبّر به سبحانه، عن نصرته للمؤمنين في بيعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن "الله منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنما المُراد أن عقد الميثاق مع الرسول، كعده مع الله، من غير تفاوت بينهما، كقوله: (مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) [٢] . والمراد ــ بذلك ــ بيعة الرضوان" [٣] . وقد دلّت الأدلة العقلية ــ فضلا عن النقلية ــ على أنه سبحانه ليس بجسم ولا حالٌّ بجسم [٤] .

فالتجسيم الذي يعنيه الكُتّاب والنقاد المعاصرون، يراد به (التجسيم الفني)، كتجسيم ما هو معنوي: عقلي أو نفسي، إذ تغدو المدركات المعنوية التي لا يدركها الحس، كأنها مدركات حسية؛ لإضفاء صفة من صفات الحسّ عليها، كالثقل والحركة واللون وما إليها. وبذلك تدخل في التجسيم الفني كثير من المجازات الاستعارية، والتشبيهات التي جيء بها لإحالة المعاني الذهنية والحالات العقلية والنفسية، صورا وهيئات حسيّة، على سبيل التمثيل والتصوير.

---

١) سورة الفتح الآية (١٠) .

٢) سورة النساء الآية (٨٠) .

٣) الكشاف، للزمخشري، مطبعة البابي الحلبي ــ مصر ١٣٦٧هــ ــ ١٩٤٨م .

٤) التبيان في تفسير القرآن: لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، طبعة النجف ١١٩٥٧، ٥/ ٣٩ .

وقد تبيّن لنا من دراسة الطبيعة في القرآن الكريم، دراسة فنية، أن التصوير فيها يقوم على أسس فنية ثلاثة هي: التشخيص، والتجسيم، والتخييل [1] .

ويرى الأستاذ سيد قطب [2]، أن "التجسيم هو الأسلوب المفضل في تصوير القرآن". وبذلك يفترق (التجسيم الفني) أيضا، في مفهومه وواقعه التعبيري عن (التشخيص الفني) . الذي تناولنا جانبا منه، وهو المتعلق بعناصر الطبيعة، في بحثنا السابق: (التشخيص الفني لعناصر الطبيعة في القرآن الكريم) [3] . وربما خلط بعض الدارسين بينهما، فسمّى التشخيص تجسيما والتجسيم تشخيصا. مع أنهما في حقيقتهما متمايزان بالوصف الذي وصفنا كلاً منهما.

ألوان التجسيم الفني

للتجسيم الفني صور عدّة عرفها البيان العربي قديما وحديثا، ووردت في (البيان الأعلى): القرآن المجيد، مصوغة فيه بأروع الصياغات وأبلغ العبارات، حتى عدّت من دلائل الإعجاز، ومثالاً ينهج في التعبير.

---

١) ينظر كتاب الطبيعة في القرآن الكريم، ص٤٦٠، دار الرشيد ــ بغداد ١٩٨٠.

٢) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار المعارف ــ مصر ١٩٦٣ ص٣٦ وما بعدها .

٣) المنشور في مجلة (منار الإسلام)، العدد٩، السنة ٢٧، رمضان ١٤٢٢هـ ديسمبر ٢٠٠١م .

وأظهر هذه الصور الفنية: تجسيم الزمان [١] ، وتجسيم القول، وتجسيم المعنويات بجانبيها: العقلي والنفسي.

فقد يجسم ا لحسِّي المدرك بإحدى الحواس، تجسيما فنيا في تعبير القرآن الكريم، إظهارا لما فيه تم الدلالة على القدرة الإلهية، المتصرفة والمنفعة التي فيه، كتجسيم الليل والنهار، إذ هما محسوسان يدركان بحاسة البصر، فالأول بظلمته (إذا عسس)، والثاني بظهوره وتبلّجه (إذا تنفس) [٢] . فجعلهما التعبير الفني للقرآن هنا جسمين متداخلين في حركة الزمن المستمرة، إذ إن الله ـــ جلّت قدرته ـــ (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) [٣] .

بل أن القرآن يجسم الزمن تجسيما فنيا، سواء أكان ذلك الزمن مما يقع في عالم الشهادة، وهو عالمنا المحسوس، أم في عالم الغيب، كتجسيم (اليوم) مثلا، وهو يوم ا لقيامة في سياق تصوير عناد الكافرين، وغفلتهم عن الاستعداد لذلك اليوم الآتي، الذي وصفه القرآن بأنه (ثقيل)، في قوله تعالى: (وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا) [٤] فوصفه بالثقل ـــ وهو زمان ـــ

---

١) وقد درسته في رسالة ماجستير خولة عبد الحميد عودة، برسالتها (التجسيم الفني للزمان في القرآن الكريم) .

٢) سورة التكوير الآية (١٨،١٧) .

٣) سورة الحج الآية (٦١) .

٤) سورة الإنسان الآية (٢٧) .

ضرب من التجسيم الفني في التعبير ، ولذلك قال الزمخشري [١] ، في تحليله له: "استعير الثقل لشدته وهوله، من الشيء الثقيل الباهض لحامله" .

تجسيم المعنويات

يقصد بالمعنويات: المدركات غير الحسية، وهي العقلية والنفسية. فهي على هذا ضربان: منها ما يدرك بالذهن والفكر، ومنها ما يستشعر بالنفس. وكلاهما كثير الورود في القرآن؛ إذ يجسّمهما التعبير القرآني ــ فنيا ــ تقريبا لهما وإشعارا بأثرهما في الحياة الإنسانية، وذلك بجعل العقلي حسيًا ذا جسم له كثافة أو طول، أو عرض، أو لون، أو نحو ذلك مما يدرك بإحدى الحواس الخمس أو أكثر منها.

وقد التفت إليه من قدامى اللغويين الكبار أبو الفتح عثمان بن جني ت(٣٩٢هــ). بما عرف عنه من رهافة الحس، وجودة الفهم، وذلك في حديثه عن الفرق بين الحقيقة والمجاز؛ إذ جعل التجسيم الفني ضربا مما سمّاه "الاتساع في اللغة"، وضرب له مثلا من القرآن قوله تعالى: (وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا) [٢]، مبينا أنه سبحانه "أخبر عن العرض بما يخبر به عن الجوهر، وهذا تعالٍ بالعرض وتفخيم منه؛ إذ صيّر إلى حيّز ما يشاهد ويلمس ويعاين". ثم ضرب له مثلا من الكلام قوله بعضهم في الترغيب في الإحسان" لو رأيتم المعروف رجلا لرأيتموه حسنا جميلا" ثم بيّن أن هذا

---

١) الكشاف، للزمخشر ٣/ ٣٠٠.

٢) سورة الأنبياء الآية (٧٥) .

القائل أراد "أن يتصور السامع الإحسان جسماً"، وذلك بأن "يتخيل شخصا مجسما، لا عرَضا متوهّماً" [١] . وبذلك أدرك ابن جني بدقة صورة المعنوي، حين يحيله المتكلم البليغ إلى شيء محسوس مجسّم.

وأشار إلى التجسيم الفني من بعد ابن تجني معاصره أبو هلال انعسكري [٢] (ت٣٩٥هـ)، كما أشار إليه بعدهما عبد القهار الجرجاني [٣] (٤٧٠هـ)، في تعريفه للاستعارة بقوله: "إن شئت أريتك المعاني اللطيفة ـــ يقصد الخفية ـــ التي هي من خبايا العقل، وكأنها قد جسمت حتى رأتها العيون"!

وقد سماه الراغب الأصفهاني (٤٢٠هـ) (تجسيماً)، كما سمّاه (تصويراً)، فأصاب في كلتا التسميتين، مدركا بذلك الصفة المزدوجة لهذا الضرب من الفن التعبيري بدقة. فذكر في تحليله لقوله تعالى: (فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) [٤] : وتصويره تعالى لعقوبة تلك القرية الخاطئة أنه "جعل الجوع والخوف لباسا، على التجسيم والتشبيه: تصويرا لهما"، ثم نظر له بقول العرب" تدرّع فلان الفقر، ولبس الجوع، ونحو ذلك" [٥] .

---

١) الخصائص: لابن جني ٣/٣٤٤ ـــ ٤٤٤، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي ـــ بيروت (د.ت) .

٢) الصناعتين ٢٧٦ ـــ ٢٧٧، بتحقيق علي البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم ـــ القاهرة ١٩٧١.

٣) أسرار البلاغة ص٥٠ ، عبد القاهر الجرجاني، تعليق الشيخ المراغي، مطبعة الاستقامة ـــ القاهرة (د .ت) .

٤) سورة النحل الآية (١١٢) .

٥) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب، تحقيق نديم مرعشلي، ص٢٦٧ (لبس) .

ولنبدأ بعد هذا بالكلام على النوع الأول من نوعي تجسيم المعنويات، وهو:

أولا التجسيم العقلي

وهو إخراج المعاني الذهنية التي تدرك بالعقل، بصور ما يدرك بالحسّ. وذلك مثل (الشك) في قوله تعالى: (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ) [١] . إذ جعل الشك وهو عقلي، ساحة للعب أولئك المشركين، بما يتعلق بدين الله الحنيف، ورسالة نبيه الأمين محمد صلى الله عليه وسلم، تصويرا لعظم شكّهم من جهة أخرى، إذ اللاعب في ما لا يصح اللعب فيه خاسر، لأنه عابث.

ونظيره (الفتنة) وهي كل ما يفتن عن الدين، ويلوي بالمرء عن الحق المبين. وقد وردت ــ في موضع ــ صفة المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد في سبيل الله، فصورهم التعبير بأنهم قد سقطوا في هوة المفتونين بالباطل عن دينهم، المعرضين عن الحق بقولهم مخاطبين النبي الكريم صلى الله عليه وسلم (ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي) [٢] . فيجئ الجواب مجسماً تلك الفتنة التي

---

١) سورة الدخان الآية (٩) .

٢) (٤) (٥) سورة الدخان الآية (٤٩) .

تردوا فيها تجسيما فنيا، بقوله تعالى: (أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ) (١) ، دالا في سياقه على سوء مصيرهم بهذا التعبير المؤكد بمؤكدين: (إن) و (اللام)، بقوله: (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) (٢) ، إذ كان تخلفهم عن القتال في سبيل الله فتنة تردَّوا فيها.

وبالمثل جسم التعبير القرآني: (الكيد)، وهو معنوي، تجسيما فنياً، إذ هو شيء عقلي يتوصل بظاهره على مقصد خفي (٣).فلا يوصف المرء به أو يُنسب إليه، إلا وهو يدبّر أمر بخفاء. وأصله في اللغة: "معالجة الشيء بشدة" (٤) . وقد جعله النص الكريم شيء قابلا للتجمع والصف؛ تعبيرا عن ذلك الباطل المتراكم. فقال عز وجل: (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى) (٥) .

فصوّر الكيد مجموعا، مع أن الذي جمعه فرعون لمنازلة موسى (عليه السلام)، هم السحرة؛ إذ كان (الكيد) عدّهم ووسيلتهم، لما يوهمون به الناس في سحرهم من أن الحق بجنبهم. فلما انتهى الأمر بخسرانهم

---

٦) ينظر: التحبير والتنوير، للطاهر بن عاشور ٣/١٣ . والألفاظ العقلية في القرآن الكريم / دراسة دلالية، رسالة ما جستير، روعة محمود الزرري، بإشراف جامعة الموصل ١٩٩٦.

٧) مقاييس اللغة، لابن فارس ٥ / ١٤٩، والصحاح للجوهري ٣٣/٢ (كيد).

٨) سورة طه الآية (٦٠) .

وبطلان كيدهم، اتضحت الحقيقة لهم، وصارت سببا في إيمانهم. حين تبين لهم الفارق بين ما هو سحر وما هو حقيقة ومعجزة.

ونظيره في تجسيم ما هو معنوي تجسيما فنيا إعطاء (الكيد) ـــ في سياق آخر ـــ بُعدا من الطول والعرض، وصحب الكافرين إملال حتى حسبوا أن ما هم فيه من سعة العيش ورغده؛ إنعاما عليهم لا استدراجا لهم. فقال تعالى مخبرا عن ذاته العلية: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [1] .

ومثله تجسيم (الباطل)، المعبّر عنه بـــ(الخوض) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [2]، إذ جعل (الخوض) ـــ وهو معنوي ـــ ساحة للعب اليهود الخاطئين، حين أنكروا ما أنزل الله سبحانه، على نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [3] .

وصعّد هذه الدلالة على الباطل التي جسّمها (الخوض)، أنها اقترنت في السياق (باللعب)، وهو في هذا الاقتران الدلالي (Collocation)، قد عبّر عن الاستهزاء بما هو حق وهذا سلوك دال على الباطل والجهل.

---

١) سور الأعراف الآية (١٨٣) .

٢) (٣) سورة الأنعام الآية (٩١) .

٤) انظر مثلا الآيات ٦٥ و٦٩ من التوبة، و٤٢ من المعارج، و٦٨ من الأنعام، و١٢ من الطور .

وقد تبين لنا من استقراء المواضع التي استعمل فيها (الخوض) في التنزيل أنه لا ستعمل إلا فيما هو باطل [١] ، على حين يخطئ الناس بعامة في عصرنا، حين يستعملونه لما ليس بخطأ [٢] .

ومن التجسيم الفني لما هو معنوي تجسيم (الضلال) بوصفه البُعد، وذلك في قوله عز وجل: (بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ) [٣] .

وفضلا عن ذلك، ارتبط التجسيم الفني لما هو عقلي في التعبير القرآني، بضروب من التخييل الرائع، المصوّر لحقائق الأشياء بدقة، كتجسيم (الحق) و (الباطل) ــ وهما معنويان ــ تصوير الأول جسما قاتلا نازلا من علٍ، وذلك في قوله تعالى: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) [٤] .

وكثيرا ما يصحب التجسيم الفني للمعنويات حركة متخيّلة تصور ما فيه من العمل على شدة الكيد وإحكام المكر، وذلك بحسب ظاهر ظن صاحبهما. إلا أن ذلك لا يلبث أن يتلاشى، فتضيع شدته، ويتهافت إحكامه بإزاء ما يقابله من كيد إلهي عظيم لا يغالب، عبّر عنه سبحانه

---

٥) كقولهم مثلا: خاض فريقنا الرياضي لعبة مع الفريق الفلاني .

٦) سورة سبأ الآية (٨) .

٧) سورة الأنبياء الآية (١٨) .

بأداة التوكيد (إنّ) و(نا) التي للعظمة، الدالين على صدروهما ممّن لا تناله أيدي الهلكات، ولا تقف بإزائه. فقال تعالى: (أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ) [١] . فكان للحركة المتخيلة هنا أثرها في هذا التصوير . فإذا كان المشركون "قد أبرموا أمرا" فإنه سبحانه، مبرم لهم من الأمر الشديد ما لا يعلمه إلا هو، مع ما يشعر به اسم الفاعل ـــ هنا ـــ من أنه تعالى أعدّ لهم من يغلب كيدهم ويشتت أمرهم.

ثانيا: التجسيم النفسي

ومن الصور الرائعة البليغة في التعبير القرآني، تصوير ما هو (نفسي) من المعنويات بصورة الحسي، كتجسيم الخوف الشديد المعبّر عنه بكلمة (الرُعب)، مصيباً اليهود الكفرة في ساحة القتال، إذ صوّر الرعب مرميا بشدة في قلوبهم، فقال تعالى: (وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا) [٢] ، فجعل (الرعب) هنا شبيها بجسم حادّ نفذ إلى قلوب هؤلاء الكافرين، المنكرين لرسالة سيد المرسلين، محمد صلى الله عليه وسلم، بحيث وقعوا بأيدي المسلمين بين قتيل وأسير. إذ أصابهم سبحانه بخوف شديد، يقطع صاحبه عما يريد. وقد ملأ نفوسهم معبّرا عنه بلفظ (الرعب)، الذي ترتب عليه ذلك النصر المبين

---

١) سورة الزخرف الآية (٧٩) .

٢) سورة الأحزاب الآية (٢٦) .

عليهم. قال الراغب [١] : "الرعب: الانقطاع من امتلاء الخوف، يقال: رعبتُهُ فرعب رُعبا. ولتصوّر الامتلاء، قيل: رعَبتُ الحوضَ: ملأتُهُ، وسيلٌ راعبٌ: يملأ الوادي. وباعتبار القطع قيل: رَعَبتُ السنامَ: قطعتُهُ" .

ومن التجسيم الفني لما هو نفسي في تعبير القرآن، وتصوير (الصبر) ماء نازلاً من علٍ على نفوس سحرة فرعون، بعد إيمانهم بموسى (عليه السلام)، حين رأوا الدليل على نبوته ، فقال مهددا لهم: (آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ) [٢] ؟، ثم توعدهم بالصلب وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، فلم يعبؤوا بوعيده، بل دعوا ربهم بأن يصبّرهم على ما سيصيبهم قائلين: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) [٣] . والمراد: "ألطف بنا حتى نصبر على عذاب فرعون، ولا نجزع منه" [٤] . إلا أن التعبير القرآني ورد بأسلوب التجسيم الفني الاستعاري المشعر باحتياج الداعين إلى صبر كبير، لتحمل هذا التعذيب، بدعائهم هذا. والعرب تقول: أفرغتُ الدلوَ، أي: صببتُ ما فيه، ومنه استعير هذا التعبير: (أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا) [٥] .

ومن التجسيم الفني لما هو نفسي في التعبير القرآني، تجسيم (السكينة) بوصفها نازلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى المؤمنين الذين

---

١) مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٠٣ (رعب) .

٢) سورة الأعراف الآية (١٢٣) .

٣) سورة الأعراف الآية (١٢٦) .

٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي ١٥٠/٩، دار مكتبة الحياة ـــ بيروت ١٩٦١م .

٥) مفردات ألفاظ القرآن ٤٧٤ (لقي) .

جاهدوا معه، وقد اقترنت (السكينة) في المواضع التي وردت فيها في القرآن بالفعل (أنزل) وذلك لمناسبة الإنزال دلالياً وفنيا للسكينة، مثلما ناسب (الإفراغ) (الصبر) في النص السابق. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (١) ، فازدوج العون الإلهي في هذا السياق، من الداخل والخارج، فمن الداخل (السكينة)، وهي الرحمة الإلهية، التي غشيت (٢) ، نفوس أولئك المؤمنين، ومن الخارج (الملائكة) التي قاتلت معهم حتى كتب لهم النصر على عدوهم.

ومن تجسيم ما هو نفسي في التعبير القرآني، تصوير (العداوة) و (البغضاء) ـــ وهما نفسيان ـــ بصورة المحسوس، الذي يلصق تارة ويلقى تارة. وقد ورد في موضعين في شأن أهل الكتاب: الأول عبر عنه بـــ(إغراء العداوة) في قوله عز جل: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (٣) . والثاني: في (إلقاء العداوة)، وقد ورد في اليهود لتقوّلهم على الله بما يليق به سبحانه، إذ نسبوا إليه البخل، وهو أكرم الأكرمين، فضلا عن ازدياد كثير منهم طغيانا وكفرا، بما أنزل الله على نبيه الأمين محمد صلى

---

١) سورة التوبة الآية (٢٦) .

٢) الكشاف للزمخشري ٢/٣٤ .

٣) سورة المائدة الآية (١٤) .

الله عليه وسلم من قرآن، إذ جحدوه بعد أن عرفوه، فقال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [1] .

وفي كلا التعبيرين: (الإغراء والعداوة)، و(إلقاء العداوة) تجسيم فني، إذ في الأول معنى اللصوق والملازمة، وفي ا لثاني معنى القذف والرمي، ذلك لأن "الإلقاء في أصل اللغة: طرح الشيء حيث تلقاه ـــ أي: تراه ـــ ثم صار في التعارف اسماً لكل طرح" [2] .

ومن التجسيم النفسي في القرآن الكريم، تجسيم (الحُبّ) المقدّر في قوله تعالى في ذمّ اليهود الذين عبدوا العجل الذي صنعه السامري من ذهب: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [3] . إذ التقدير: "حبُّ العجل"، وعبر عنه "بالشرب دون الأكل؛ لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى بواطنها.." [4] . وقد حذف المضاف في التعبير وهو (حبّ) وأُبقي المضاف إليه دالا عليه بقرينة سياقية هي: (أُشربوا)، إذ لا يوصف العجل بالإشراب في النفوس، بل الذي يشرب هو حبّه، الذي حمل اليهود على عبادته، حتى صار ذلك ذماً لهم وسبّة عليهم.

---

١) سورة المائدة الآية (٦٤) .

٢) مفردات ألفاظ القرآن ٤٧٤ (لقي) .

٣) سورة البقرة الآية (٩٣) .

٤) مجمع البيان ١/٣٦٦.

ومن تجسيم ما هو نفسي، تجسيم (الذل)، و (المسكنة) وهي المذلة التي وصف بها اليهود عقابا لهم على كفرهم وقتلهم الأنبياء. فصوّر تعبير الذلة والمسكنة، كالخيمة أو الفسطاط المضروب عليهم، فلا مخرج لهم منه ولا خلاص. فهذا ضرب من البيان القرآني الاستعاري الرائع عن طريق التجسيم الفني، في تصوير ما اشتمل على اليهود من الذل الشديد الذي عبّر عنه قوله تعالى: (وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ) [1] . ولهذا قال الزمخشري [2] . — فأحسن القول — : "ضربت عليهم المسكنة كما يضرب البيت على أهله، فهم ساكنون في المسكنة، غير ظاعنين عنها، وهم اليهود لعنة الله عليهم وغضبه" .

ومن تجسيم ما هو نفسي في التتريل، تجسيم (الغرور) في قوله تعالى: (إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ) [3] . فكان الغرور قد استحال إلى شيء مادي، انغمر هؤلاء الكافرون في ربقته. وهذا من روائع التصوير القرآني؛ لغفلة هؤلاء الكافرين الذين غرقم أمانيهم، في الحياة الدنيا الفانية، كما قال تعالى: (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) [4] . (وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ) [5] . ولا

---

١) سورة آل عمران الآية (١١٢) .

٢) الكشاف ٣٤٣/١ .

٣) سورة الملك الآية (٢٠) .

٤) سورة الأعراف الآية (٥١) .

٥) سورة الحديد الآية (١٤) .

سيما أن الغرور دال على (غفلة)، فإن كانت في نومن فهي (غرار)، وإن كانت في يقظة فهي (غرّة).

وهذا الغرور الذي جسمه التعبير القرآني فنياً غرور الشيطان الذي وقعوا في ربقته، إذ غرهم بوسوسته لهم، بأن العذاب لا يترل بهم، أو هو من غرور أنفسهم، في أن عبادة الأوثان تنفعهم [١] .

فيتبين مما تقدم أن التجسيم الفني من أروع أساليب القرآن في التصوير والبيان، وأنه بلغ حد الإعجاز، بما رسم من صور رائعة فريدة، ولا سيما في تجسيم (المعنويات)، سواء أكانت (عقلية) أم (نفسية) .



١) مجمع البيان ٢٩/ ١٥ .

(١٧)

تعلُّم القرآن ودوره في البناء الحضاري

مجلة منار الإسلام العدد ٣٥٧

كان بدء نزول القرآن الكريم على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم في "غار حراء" نقطة تحوّل فاصلة بين عهدين متباينين تماماً؛ عهد الجاهلية بما فيه من ظلمات الجهل والتخلّف والظلم والغياب عن الحضارة، وعهد الإيمان بما فيه من العلم والتقدم والأخلاق العظيمة والقيم السامية.

وكان لابد للوعي بالقرآن والاسترشاد بهدية أن يسبق ذلك عملية تعليم القرآن وتعلمه، على مستوى الأداء أولا، ثم الحفظ والفهم والتدبّر، ثم العمل والتطبيق وترجمة هذا القرآن إلى واقع حي. فما دور تعلّم القرآن وتعليمة في البناء الحضاري، وفي انتشال الناس من وهدة النظم الجاهلية السائدة، إلى قمة الحضارة في تدرج تربوي متناسق بعيداً عن الطفرة والفجأة؟

تعلم القرآن الكريم وتعليمه

ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خيركم من تعلّم القرآن وعلمه" [١] .

---

١) رواه البخاري (٩/٦٦ و٦٧) في فضائل القرآن، باب : خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

وبهذه الجملة أكد الرسول صلى الله عليه وسلم منذ وقت مبكر أهمية التعلم والتعليم، وقيمة العملية التعليمية، ودعا إلى توسيع دائرتي التعلم والتعليم لتشملا كل الناس، حيثما كانوا وفي أي عصر عاشوا.

إن أول معلم للقرآن هو منزله سبحانه وتعالى، حيث يقول في مطلع سورة عرفت باسم عروس القرآن: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [1] . فالله سبحانه هو الذي علم القرآن، وهو الذي نزله بالحق، وهو الذي اصطفى الأمة التي تقرأ كتابه وتتعلمه، وإنها لمنة عظيمة ونعمة سابغة أن يكرم الله البشر فيأذن لهم بتعلّم آيات كتابه، وتلاوة كلامه كلما أرادوا ذلك.

إنها لنعمة أن يكون كلام الله سبحانه في أفواهنا وعلى ألسنتنا، وفي قلوبنا، نقرؤه كلما شئنا، ونمره على القلوب حيثما كنا لنفهم ونتدبّر ونتعلّم.

وإذا كان الرحمن هو الذي علّم القرآن، فإن الإنسان هو المتعلم المتلقي للعلم عن ربه سبحانه، وقد تجلّى التعليم الرباني للإنسان في صور عديدة، كان أولها تعليم آدم الأسماء كلها، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ [2] . وآدم (عليه السلام) هو أول إنسان سعى على وجه هذه الأرض وعمّرها.

---

١) سورة الرحمن الآية (١ — ٤) .

٢) سورة البقرة الآية (٣١) .

وكان الأنبياء (عليهم السلام) يتلقّون العلم من ربهم سبحانه، عن طريق الوحْي ليبلغوه للناس، فكانوا بذلك متعلّمين أولا ومعلّمين ثانيا، يعلّمون الناس الخير ويدعوهُم إلى الهدى، وفي هذا يبين القرآن الكريم كيف كان اصطفاء الله للأنبياء وإيتاؤهم العلم. قال تعالى: (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا..) [١] . فهذه الآيات بينت كيف عُلّم موسى (عليه السلام)، وأمر أن يأخذ الكتاب بقوة وأن يعلّم قومه ويرشدهم إلى الأحسن، فهو متعلّم أولا ومعلم ثانيا وقال تعالى مخاطبا يحيى (عليه السلام): (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ) [٢] . وأخذ الكتاب بقوة ينطوي في بعض معانيه على التعلم والعمل، والتمسك بالأحكام والثبات على العقيدة والإيمان، كما يؤكد على أهمية تحمّل التبعات والقيام بالواجبات والمسؤوليات .

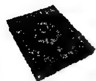
وقال سبحانه: (وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) [٣] . وفي موضع آخر بيَّن أنه علّم داود (عليه السلام) صنعة الدروع الواقية من البأس يوم الحرب، فقال:

---

١) سورة الأعراف الآية (١٤٤، ١٤٥) .

٢) سورة مريم الآية (١٢) .

٣) سورة النساء الآية (١٦٣) .



(وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ) [١] .
وهذا يشير إلى أهمية ترجمة العلم النظري إلى واقع، ونقله إلى ممارسة وسلوك، فالمسلم المتمسك بهدي كتاب الله هو إنسان فاعل وإيجابي في مجتمعه، متقن لصنعته، مخلص في عمله، وهو لا يتوقف عند تعلم الفقه والأحكام، بل يتعلم كل ما يمكن أن ينفع به المسلمين من علوم وصناعات.
وقال سبحانه في شأن عيسى (عليه السلام): (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ) [٢] . وقال في خطابه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: (وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [٣] .

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمضى مدة من عمره لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فإن أثر النعمة بالوحي إليه يتجلّى في أبهى صوره، حين يكون الوحي بهذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. قال تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا

١) سورة الأنبياء الآية (٨٠) .
٢) سورة آل عمران الآية (٤٨) .
٣) سورة النساء الآية (١١٣) .

مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [1].

وقال تعالى: (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) [2].

تجاوب الرسول صلى الله عليه وسلم مع القرآن الكريم

لقد كان تجاوب الرسول صلى الله عليه وسلم مع الوحي حين نزل عليه في "غار حراء" وأخذ يدعوه إلى القراءة ويغتّه ـــ أي يضمه إلى صدره ضمّا شديدا ـــ ثم يطلقه فيقول له: اقرأ، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارئ، فيغتُّه ثانية ويرسله. ويقول: اقرأ ثم الثالثة حيث يقول له: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [3]. [4].

كان تجاوب النبي صلى الله عليه وسلم مع هذا الوحي واضحا سريعا قويا، حيث تعلّم منه هؤلاء الآيات مع أنه لم يكن له علم بالقراءة ولا بالتعلّم، ثم مضى عائدا إلى بيته، خائفا مما رأى، واعيا لما سمع، حافظا لما تعلّم. وكان ذلك أول الوحي وأول نزول القرآن، كما كان أول التعليم بوساطة جبريل

---

١) سورة الشورى الآية (٥٢) .

٢) سورة العنكبوت الآية (٤٨) .

٣) سورة العلق الآية (١ ـــ ٥) .

٤) انظر تفصيل القصة في السيرة النبوية لابن كثير ٣٩٢/١ .

(عليه السلام) الذي قام بدور المعلّم، بينما قام الرسول صلى الله عليه وسلم بدور المتعلّم .

الدعوة إلى القراءة

ما أعجب هذه الآيات التي افتتح بها التتريل الكريم، وهي تردد: اقرأ.. اقرأ.. علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، ففيها أمر بالقراءة، وتنبيه على العلم والتعلم والتعليم، والقلم الذي هو أداة الكتابة. وما أحسن وأعظم أن يتعلم المرء ليخرج من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن أوهام الزيغ والضلالة إلى أنوار الحقيقة الساطعة، وشمس المعرفة المبصرة الواعية. (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [1] .

وحين نقف مع هذه الآيات من سورة العلق، وقصة نزولها التي كانت بمترلة إعلان عن اتصال السماء بالأرض بعد فترة من الرسل، نجد هذه الآيات داعية بوضوح إلى القراءة والعلم [2] باعتبار أن العلم هو الوسيلة الأساسية لمعرفة الخالق سبحانه، ولنهضة المجتمع، وقيام الحضارة.

---

١) سورة إبراهيم الآية (١) .

٢) يقول العلامة أبو الحسن الندوي (رحمه الله): "الغريب الذي يسترعي انتباه الفلاسفة والمفكرين في العالم، والمؤرخين للديانات والحياة العلمية، هو ذكر القلم في هذا الوحي الأول، الذي يرول على أمي يبعث في أمة أميّة، في بلد تعذّر فيه وجود القلم، ولم يجاوز عدد الكتاب (وهم المتعلّمون) عدد الأنامل، فدل ذلك على ربط هذه الديانة والأمة التي تدين بها وتحملها، بالقراءة والكتابة والإستعانة بالقلم، ربطا دائما وثيقاً، بخلاف ديانات كثيرة سابقة، وكان ذلك سر انبثاق حركة علمية تأليفية عالمية لا يوجد لها نظير في تاريخ الديانات والأمم. وكذلك كان ورود آية (علم الإنسان ما لم يعلم) "العلق/٥" في هذا الوحي حافزا على التوسع في آفاق العلم، والاكتشاف

واكتساب العلم بحاجة إلى جلد ومثابرة وصبر، وطاعة للمعلم والتزام بقوله، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة في كل ذلك، فهو يستجيب للوحي، وينفذ ما يأتيه من أمر دون تردد أو تأخير.

وتشير القصة إلى أن جبريل (عليه السلام) ضم إليه النبي صلى الله عليه وسلم ضمّا شديدا ثم أرسله ثلاث مرات، وفي كل مرة يظن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه الموت، ويشتد عليه الألم لما يجده من الغت والضم الشديد على المتعلم وتأديبه، ليعرف قدر العلم قيمته؟ أم أن في ذلك تأكيدا على ضرورة الحضور بوعي كامل وانتباه شديد؟

وتدعو آيات القرآن جميع المسلمين إلى التعلم والتعليم، وتحثهم على القراءة وتلقي العلم، والاستفادة منه، فالنبي ﷺ يخاطَب بهذه الآية الكريمة: (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) [1] . والأمة تخاطب بقوله تعالى: (وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ) [2] . وتوجه إلى التعلّم واكتساب العلم باستخدام العقل والحواس وسائر الإمكانات المتاحة: (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [3] .

للمجهول، والترقب للمزيد الجديد، وعدم إنكار حقائق علمية ثابتة لم تكتشف في العصور الماضية. [السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي] هامش ص١١٦ ــ١١٧. دار ابن كثير ــ دمشق ط٢ سنة ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م .

١) سورة طه الآية (١١٤) .

٢) سورة آل عمران الآية (٧٩) .

٣) سورة النحل الآية (٧٨) .

التثبت من المعلومات

وإذا تم اكتساب العلم، فلابد من التأكد والتثبت، حتى يتم خروج المرء من ظلمات الشك والريب إلى نور الحق وهدايته الواضحة: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) (١).

إنها مسؤولية كبيرة، وأمانة عظيمة، فليس لأحد أن يتبع ما ليس له به علم، أ، يبني موقفا على جهل وعدم وضوح. وعلى الإنسان ألا يتخذ موقفا أو قرارا أو توجها إلا بعد علم ومعرفة ووعي واستبصار.

ومما يؤكد هذه الحقيقة أن الله سبحانه حين حرّم الفواحش والكبائر، جعل القول بغير علم واحدة منها، وقرنها بالشرك الذي هو أعظم الفواحش وأشدها فقال سبحانه: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (٢).

إن نظرة عابرة في نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة جديرة أن تبين حرص الإسلام على العناية بالعلم والمعرفة، ورفع قدر العلماء ودرجاتهم، استشعارا بأن العلم هو السبيل إلى معرفة الخالق سبحانه، وبناء

---

١) سورة الإسراء الآية (٣٦).

٢) سورة الأعراف الآية (٣٣).

أسس الحضارة الراشدة الراقية، ورفع قدر الإنسان الذي وجدت الحضارة من أجله.

حملة القرآن الكريم ومكانتهم

يُبّين القرآن الكريم أن حملته هم أهل العلم. قال تعالى: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ..) [(١)] . ويبين الرسول (ﷺ) مترلة حملة القرآن فيقول: "أشرف أمتي حملة القرآن" . ويقول (ﷺ): "إن لله أهلين من الناس، أهل القرآن هم أهل الله وخاصته" [(٢)] .

وقد امتاز حملة القرآن من الصحابة بأهم أكثر الناس زهدا في الدنيا وإقبالا على الآخرة ونفعا للناس وحرصا على الجهاد في سبيل الله تعالى، وأكثرهم صبرا على مجالدة الأعداء. وفي هذا ترد وقائع كثيرة منها أن بعض الصحابة في يوم اليمامة قالوا لسالم مولى أبي حذيفة: يا سالم إنّا نخشى أن نؤتى من قبلك! فقال سالم: بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قبلي" [(٣)] .

وقد رأى ابن مسعود أن حملة القرآن يجب أن يتميزوا عن غيرهم من الناس في جدهم وزهدهم وعبادهم وتواضعهم فقال: "ينبغي لحامل

---

١) سورة العنكبوت الآية (٤٩) .

٢) رواه أحمد في مسنده والنسائي في السنن الكبرى وابن ماجة في سننه برقم (٢١٥) والحاكم في المستدرك. (٥٥٦/١) .

٣) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب / لابن عبد البر النمري القرطبي مجلد٢، ج٣، ص٥٣، دار الكتب العلمية — بيروت.

القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون" (١) .

وقال الفضيل بن عياض (رحمه الله): حامل القرآن حامل راية الإسلام فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا أن يسهو مع من يسهو، ولا أن يلغو مع من يلغو، تعظيما لحق القرآن. وقال أيضا: "ينبغي لحامل القرآن ألا يكون له إلى أحد حاجة، ولا إلى الخلفاء من دونهم فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه" (٢) .

وقال الإمام النووي (رحمه الله) في كتاب [التبيان في آداب حملة القرآن]: "ومن آدابه أن يكون على أكمل الأحوال، وأكرم الشمائل، وأن يرفع نفسه عن كل ما نهى القرآن عنه إجلالاً للقرآن، وأن يكون مصونا عن دنيّ الاكتساب، شريف النفس، مرتفعا على الجبابرة والجفاة من أهل الدنيا، متواضعا للصالحين وأهل الخير والمساكين وأن يكون متخشعا ذا سكينة ووقار .

---

١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن / للنووي ص٥٧، دار العروبة ـ الكويت ط٣ ، سنة ١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م. تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط .

٢) انظر: كيف نتعامل مع القرآن العظيم/ د. يوسف القرضاوي، ص١٦٠ مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١، سنة١٤٢١ =٢٠٠١م.

فقد جاء عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال: يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح لكم الطريق، واستبقوا الخيرات، ولا تكونوا عيالا على الناس" [١] .

دور حامل القرآن

ويمكن القول: إنّ دور حامل القرآن في البناء الحضاري يتمثل في الأمور التالية:

١- الإقبال على الحياة بفاعلية وجد وقوة .

٢- العمل بأقصى طاقة ممكنة.

٣- الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

٤- الحرص على ترجمة القرآن إلى واقع حي وممارسة عملية.

وحين يتم تطبيق هذه العناصر الأربعة وتفعيلها في المجتمع من خلال الربانيين [٢] الذين يعلمون الكتاب ويدرسونه، سنجد مجتمعا فاضلا كريما تحققت فيه قيم الإسلام وأخلاقه العظيمة، وقامت في حضارة القرآن وحضارة الذكر والإيمان، حيث العدالة والحرية والرحمة والأخوة والتعاون والتسامح والرضا واحترام الآخرين.. وسائر منظومة القيم الإسلامية العظيمة.

---

١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن / للنووي ص٥٧.

٢) قال العلماء في تفسير كلمة الربانيين: هم العلماء الحلماء. وقيل: العلماء الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره. والرباني لغة: المتأله العارف بالله سبحانه. انظر: تفسير القرطبي للآية رقم ٧٩ من سورة آل عمران ، والقاموس المحيط للفيروزابادي فصل الراء باب الباء.

وعندها يكون مجتمع الطهر والنقاء الذي آنست فيه نفوس الناس إلى الرضا والطمأنينة، وفاءت إلى ظلال الهدوء والسكينة.

العلم أساس الحضارة

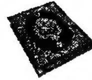
لقد نعم المسلمون ومن حولهم بثمرات الحضارة التي صنعها الإسلام العظيم حين كان حملته من الربانيين الذين أخذوا الكتاب بقوة، وأقبلوا عليه برغبة وشوق، وطبقوا تعاليمه بين الناس بأمانة وإخلاص، فكانت الحضارة العربية الإسلامية التي لم يشهد التاريخ لها مثيلا، ولم تقدم أمة من الأمم معشار ما قدمته حضارة الإسلام.

يقول برينولت في كتاب تكوين الإنسانية:

"العلم هو أعظم ما قدمته الحضارة العربية إلى العالم الحديث عامة. والجدير بالذكر أنه لا يوجد ناحية من نواحي النمو الحضاري إلا ويظهر للإنسان فيها أثر الحضارة والثقافة العربية، وإن أعظم مؤثر هو الدين الإسلامي الذي كان المحرك للتطبيق العلمي على الحياة. وإن الإدّعاء بأن أوروبا هي التي اكتشفت المنهج التجريبي ادِّعاء باطل وخال من الصحة جملة وتفصيلا فالفكر الإسلامي هو الذي قال: انظر وفكر واعمل وجرب حتى تصل إلى اليقين العلمي".

وأضاف كلير في كتابه (تاريخ الطب العربي):

"ويجب ألاّ ننسى أن فترة نشوء الحضارة العربية تميّزت بالأصالة العميقة التي أصبحت منطلقها، فالشعوب المختلفة التي أتت على مسح



العلم كانت تنهج على وجه التقريب قانونا واحدا في تنشئة العلوم وتطويرها. ولكن ذلك اختلف عند علماء المسلمين، إذ كانت طريقة اكتسابهم للعلوم واستيعابهم لها مثلا فريدا في التاريخ" [١] .

وختاما، فإننا إذا أردنا أن نخطو الخطوة الأولى في الاتجاه الصحيح نحو بناء حضارة عربية وإسلامية سامقة، وإعادة مجد حضارتنا التي ما زلنا نجتر ذكرياتها بلهفة وشوق، فلابد من العودة إلى تعلم القرآن الكريم وتعليمه أداء وحفظا وفهما وتدبرا، وأن يكون ذلك هو الأساس الذي نبني عليه وننطلق منه، اقتداء بجيل الربّانيين السابقين الذين بنوا على أساس القرآن وفهمه وتطبيقه حضارتهم العظيمة .



والله أعلم ،،

تم بحمد الله الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني إن شاء الله تعالى

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

١) العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية / د. علي عبدالله الدفاع، ص١٥ مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

فهرس الجزء الأول

جدول لعدد الأنواع في بعض الرتب الحشرية

الرتبة	عدد الأنواع
الخنافس	٢٨٠٠٠٠
حرشفية الأجنحة	١١٣٠٠٠
غشائية الأجنحة	١٠٨٠٠٠
ثنائية الأجنحة	٨٥٠٠٠
نصفية الأجنحة	٦٥٠٠٠
مستقيمة الأجنحة	٢٠٠٠٠
متساوية الأجنحة	٢٠٠٠

هذا وقد ذكر القران الكريم الحيوانات مجملة في كلمة "دابة" ثم ذكر حشرات بعينها تفتح لنا مجالا رحبا للتأمل ويذكر أن بعض العرب من غير المسلمين تعجبوا من ذكر الحشرات وغيرها في القران ككتاب هدى وما دروا أن هذه تضيف إلى إعجاز القران العلمي صدق رسالة الإسلام التي تكتشف للناس على مر العصور .

تهدف هذه الدراسة المقتضبة إلى إبراز بعض الجوانب في الحشـــرات الـــتي تناسب ذكرها في قضية البعث والنشور خاصة أو للتحدي والإعجاز .